بيرل باك

الأرض الطيبة

ترجمة أمين سلامة



الأرض الطيبة

تأليف
بيرل باك

ترجمة
أمين سلامة



الأرض الطيبة

بيرل باك

the Good Earth

Pearl Sydenstricker Buck

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٢٦ ٦

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٣١.
صدرت هذه الترجمة عام ١٩٦١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

مقدمة

بيرل باك

لما كانت بيرل باك ابنة أحد المبعوثين الأمريكيين، فقد أمضت أيام طفولتها بالصين. فعلَّمتها أمها يوم أن كانت طفلة ثم بعثت بها إلى مدرسة بمدينة شنجهاي. وعندما بلغت السابعة عشرة، سافرت إلى أوروبا، ثم إلى وطنها، أمريكا، حيث التحقت بإحدى الكليات الجامعية.

عادت بيرل باك إلى الصين بعد أن أتمت تعليمها الجامعي حيث مكثت عامين تسهر على تمريض والدتها التي مرضت مرضًا خطيرًا. ولما شُفِيَت أمها، انتقلت هي وأسرتها إلى مدينة بشمال الصين.

وبعد خمس سنين انتقلوا إلى نانكنج وشهدوا فيها ثورة الصين التي استمرت عشرة أعوام ورأوا مولد العصر الحديث الذي أشرق على الشعب الصيني.

قضت بيرل باك ردحًا من حياتها تُعلِّم اللغة الإنجليزية في مختلف الجامعات الصينية. وكانت تجد متعة كبيرة في الناس سواء كانوا صينيين أو أمريكيين أو من أي جنسية أخرى، أما طموحها في أن تخلق من الناس في كتبها أقوامًا حقيقيين فقد تحقق بنجاح منقطع النظير.

كانت مؤلفات بيرل باك الأولى كلها عن الصين، ولكنها في عام ١٩٤٥م وطدت العزم على الكتابة عن الحياة الأمريكية وقامت بذلك تحت اسم مستعار هو جون سدجز. ولقد حازت رواياتها هذه نجاحًا كبيرًا لحين من الزمان قبل أن يُكتشَف أن المؤلف الحقيقي لها هو بيرل باك وربما كانت قصة «الأرض الطيبة» أبعدها صيتًا وأحب كتبها إلى قلوب الناس.

مُنِحَت بيرل باك جائزة نوبل وكذلك جائزة بوليتزر للأدب وتعتبر من أشهر كُتَّاب العصر الحديث الأمريكيين الذين يحظون بأعلى درجات التبجيل وذيوع الصيت.

الباب الأول

إنه يوم زواج وانج لنج، وعندما فتح عينيه بادئ ذي بدء في ظلام الستائر الموضوعة حول سريره، لم يستطع التفكير في سبب اختلاف هذا الصباح عن غيره في بقية الأيام الأخرى. كان البيت هادئًا! إلا من سعال والده العجوز الخافت الذي كانت حجرته في مواجهة حجرة وانج لنج عبر الحجرة الوسطى. كان سعال الرجل العجوز أول صوت يُسمَع في كل صباح. وكان من عادة وانج لنج أن يصغي إليه وهو راقد، ولا ينهض من فراشه إلا عندما يسمعه وهو يقترب، ويسمع صرير مفصلات باب حجرة والده.

بَيْد أنه لم ينتظر ذلك في هذا الصباح. فوثب وأزاح ستائر فراشه جانبًا. كان الوقت مطلع الفجر، وأمكنه أن يلمح السماء خلال ثقبٍ مربع صغير في النافذة حيث كان الورق الممزق يهتز. فاتجه نحو الثقب ونزع الورق.

ثم قال لنفسه: «إننا في الربيع، ولا حاجة بي إلى هذا.»

لقد خجل من أن يقول بصوتٍ عالٍ، إنه كان يرغب في أن يبدو البيت أنيقًا في هذا اليوم. فأخرج يده من الثقب ليحس بالهواء. كانت نسمة رقيقة تهب برفق من الشرق. كانت ريحًا معتدلة ومليئة بالمطر ... لن تمطر السماء في هذا اليوم، بل إذا استمرت هذه الريح، فستمطر السماء بعد بضعة أيام.

أسرع وانج لنج إلى الحجرة الوسطى، يشد سرواله الخارجي الأزرق وهو يسير، ويربط حزامه المصنوع من نسيج القطن الأزرق، حول وسطه. وقد ترك الجزء العلوي من جسمه عاريًا حتى يسخِّن ماءً ليستحم. فذهب إلى الحظيرة الملاصقة للمنزل، والتي كانَا يستعملانها مطبخًا، فأخرج ثورٌ رأسَه من ظلامها، وفتح فمه يخور نحوه بصوت عميق. كان المطبخ مبنيًّا باللَّبِن، كما كان البيت مبنيًّا باللَّبِن أيضًا ... كذلك صنع جده الموقد، في

أيام شبابه من طينة أرضهم. وقد تحول لَبِن الموقد إلى آجُرٍّ واسْوَدَّ من إعداد الطعام فيه طيلة عدة سنوات. وكانت فوق الموقد قِدر حديدية مستديرة عميقة.

وضع وانج لنج بعض الماء في القِدر، سكبه فيها من جرَّة فخارية كانت بقربه. ولكنه سكب الماء بحذر، إذ كان الماء ثمينًا. ثم رفع الجرة فجأة وأفرغ كل الماء في القِدر ... لقد نوى أن يغسل جسمه كله في هذا اليوم.

دَارَ وانج لنج حول الموقد حتى صار خلفه، وانتقى قبضة من الحشائش والأحطاب الجافة مما كان في ركن المطبخ، ووضعها مُرتَّبة بعناية في فتحة الموقد بحيث ينتفع من كل ورقة فيها إلى أقصى ما يمكن. ثم وَلَّد لهبًا من حجر قدح عتيق وقطعة من الحديد، ودفعه إلى القش، فاشتعل.

هذا آخر صباح سيوقِد فيه نارًا. كان يوقدها كل صباح منذ أن ماتت والدته قبل ذلك بست سنوات. كان الوالد طيلة هذه السنوات الست ينتظر ابنه كل صباح ليأتيه بالماء الساخن ليخفف عنه سعال الصباح ... أما الآن، فيستطيع كل من الأب والابن أن يستريح. ستأتي سيدة إلى البيت.

وبينما كان وانج لنج يفكر في هذه الأمور، انطفأت النار في الموقد، وظهر الرجل العجوز عند المدخل وكان يسعل ويلهث، ويقول: «كيف يتأنَّى ألا يُعَدَّ الماء حتى الآن، لتدفئة رئتَي؟»

فأحس وانج لنج بالخجل.

ثم تمتم، يقول، من مكانه خلف الموقد: «هذا الوقود رطب. إنها الريح الرطبة ...»

استمر الرجل العجوز يسعل، ولم يكف عن السعال حتى غلى الماء. فصبَّ وانج لنج بعضًا منه في قدح. وبعد لحظة، فتح جرة كانت فوق طرف الموقد وتناول منها حوالي اثنتي عشرة وُرَيْقَة جافة من الشاي ونثرها على سطح الماء. فانفتحت عينَا الرجل المسن في شراهة، وبدأ يتذمر في الحال، قائلًا:

«لماذا هذا الإسراف؟ إن شُرب الشاي لأشبه بأن تأكل الفضة.»

ضحك وانج لنج ضحكة قصيرة، وأجابه بقوله: «كل واطمئن، فلن يتكرر هذا إلا اليوم فقط!»

أمسك الشيخ العجوز بالقدح، وكان ينظر إلى الأوراق وهي تعتدل من تقوُّسها وتنتشر على سطح الماء؛ إذ لا يطيق أن يشرب تلك المادة النفيسة.

فقال وانج لنج: «إنه سيبرد.»

قال الرجل العجوز: «حقًّا ... حقًّا.» وبدأ يشرب الشاي الساخن، ولكنه لم ينسَ كلية رؤية وانج لنج، وهو يصب الماء من القِدر في طست خشبي عميق.

وفجأة قال: «إن هذا ليكفي لأن يروي زرعةً حتى تثمر.»

فقال وانج لنج في صوت خفيض: «لم أغسل جسمي كله منذ أول السنة الجديدة.» وأسرع يحمل الطست إلى حجرته، ولم يقفل الباب تمامًا. فدخل الرجل العجوز الحجرة الوسطى وأدخل فمه في فتحة الباب وصرخ: «ليس من الحكمة أن نبدأ مع السيدة هكذا .. شاي في الصباح وماء وكل هذا الاغتسال!»

فصاح وانج لنج: «إنه اليوم فقط.» ثم أردف قائلًا: «عندما أنتهي من الاستحمام، سأسكب الماء في الحقل، وعندئذٍ لا يضيع كله سُدًى.»

سكت الرجل العجوز عندما سمع هذا. وحلَّ وانج لنج حزامه، وخلع ملابسه. وفي حزمة الضوء المربعة الآتية من الثقب، عَصَرَ فوطة صغيرة كانت في الماء الذي يتصاعد منه البخار، ودعك جسمه الأسمر الضئيل. ثم اتجه إلى صندوق كانت تملكه والدته، وأخرج منه حُلَّةً جديدة زرقاء، من نسيج القطن. وربما أحس في هذا اليوم ببعض البرودة وهو لا يرتدي ملابس الشتاء الثقيلة بَيْد أنه فجأة لم يشتهِ أن تراه المرأة لأول مرة في ملابسه القذرة المهلهلة. أما فيما بعد فعليها أن تغسلها وترتقها، لكن هذا لن يتم منذ أول يوم. وارتدى فوق السترة والسروال الزرقاوين القطنيين، ثوبه الطويل الوحيد الذي يلبسه في أيام الأعياد فقط، وكلها عشرة أيام أو نحو ذلك، في مجموعها ... وبأصابع سريعة، حلَّ ضفيرته الطويلة المتدلية على ظهره، وأخذ مشطًا خشبيًّا من درج النضد الصغير، وشرع يمشِّط شَعره.

اقترب والده ثانيةً، ووضع فمه في شق الباب، وتبرم قائلًا: «ألا آكل اليوم؟ في سني هذه تكون عظامي ماءً في الصباح إلى أن تُعطَى الطعام.»

فقال وانج لنج وهو يضفِّر شَعره بسرعة ونعومة: «ها أنا ذا آتٍ.» وبعد لحظة خلع ثوبه الطويل ولف ضفيرته حول رأسه، وخرج يحمل طست الماء. لقد نسي طعام الإفطار كل النسيان. سيضع قليلًا من الماء على دقيق الذرة، ويقلبه، ويعطيه أباه، أما هو نفسه فلن يستطيع أن يأكل شيئًا.

ملأ دلوًا من البئر القريبة من بابه، وصب منها قليلًا من الماء في القِدر. وسرعان ما غلى الماء، فقلَّب فيه الدقيق، وأخذه إلى الشيخ العجوز.

ذهب وانج لنج إلى حجرته، وارتدى ثوبه الطويل الأزرق ثانية، وأنزل ضفيرة شعره. ربما كان من الأوفق أن يحلق من جديد. ولم تكد الشمس أن تشرق بعد. يمكنه أن يذهب

إلى شارع الحلاقين، ويحلق قبل أن يذهب إلى البيت الذي تنتظره السيدة فيه؛ فلو كان لديه نقود لفعل هذا.

أخرج الفتى من حزامه كيسًا صغيرًا من المنسوج الرمادي اللون، وعَدَّ ما فيه من نقود. كان به ستة ريالات فضية وحفنة من النقود البرنزية. ولم يكن قد أخبر والده، حتى هذه اللحظة، أنه قد دعا بعض الأصدقاء إلى العَشاء في تلك الليلة. دعا ابن عمه، وعمه، كما دعا ثلاثة من الجيران الفلاحين. وأزمع أن يُحضر معه من المدينة في هذا الصباح بعضًا من لحم الخنزير، وسمكة صغيرة من أسماك البرك، وحفنة من الكستناء. كذلك يمكنه أن يشتري بعضًا من أعواد الغاب من الجنوب، وقليلًا من اللحم البقري ليُطبَخ مع الكرنب الذي زرعه في حديقته. ولكنه لن يشتري هذا إلا إذا تبقى معه نقود بعد شراء زيت الفول وصلصة فول «الصويا». وإذا حلق رأسه، فربما لا يستطيع شراء اللحم البقري … ثم قرر فجأة أن يحلق رأسه.

ترك وانج لنج والده العجوز، وخرج في الصباح الباكر وقد نثرت الشمس أشعتها المتألقة فوق الندى وفوق عيدان القمح والشعير النامية. فانحنى وانج لنج ليفحص السنابل المتبرعمة، فإذا هي خاوية لم تمتلئ بالحبوب بعد؛ إنها تفتقر إلى المطر. فنظر إلى السماء فرأى المطر أسود في السحب. فأزمع أن يشتري عودًا من البخور ويضعه في المعبد الصغير من أجل رب الأرض؛ ففي مثل هذا اليوم حَرِيٌّ به أن يفعل هذا.

أخذ وانج لنج يضرب في طريقه الضيق وسط الحقول. وكان سور المدينة الرمادية يبدو مرتفعًا على مسافة قريبة. سيمر من باب السور خلفه البيت العظيم الذي نشأت فيه المرأة أَمَةً منذ طفولتها. إنه بيت هوانج. وكان هناك مَن يقولون: «من الأوفق أن يعيش المرءُ أعزبَ من أن يتزوج امرأة كانت يومًا أَمَةً في بيت عظيم.» فعندما سأل والده: «ألن أتزوج قط؟» أجاب والده: «لَمَّا كان الزواج يتكلف كثيرًا في هذه الأيام، وتتطلب السيدات خواتم ذهبية وملابس حريرية قبل أن يتزوجن، فلا يبقى سوى الإماء ليقتنيهن الفقراء.»

ذهب والده عندئذٍ إلى بيت هوانج، وسأل عمًّا إذا كان عندهم أَمَة لابنه. قال: «نريد أَمَةً، ليست صغيرة جدًّا، وفوق كل شيء، لا تكون جميلة.»

تألم وانج لنج عندما عَلِمَ أنها لن تكون جميلة. فلما لاحظ والده وجهه الغاضب، صاح فيه قائلًا: «وماذا نفعل بامرأة جميلة؟ يجب أن نقتني امرأة ترعى شئون البيت وتعمل في الحقل. إننا فلاحون.»

كان وانج لنج يعلم أن ما يقوله والده هو الصواب. فقال أخيرًا: «على الأقل لا يكون وجهها مشوَّهًا بالثآليل (البثور)، ولا تكون شفتها العليا مشقوقة.»

فأجاب والده: «سنرى ما سنأخذها.»

اشترى وانج لنج ووالده خاتمين من الفضة المطلية بالذهب، وقرطًا من الفضة أيضًا. فأخذها والده إلى صاحبة المرأة إعلانًا للخطبة. لم يعرف وانج لنج شيئًا عن المرأة التي ستكون زوجته، سوى أنه سيذهب في هذا اليوم لإحضارها.

سار وانج لنج في ظلام باب المدينة البارد، وكان السقاءون خارج المدينة يدخلون ويخرجون منها طول اليوم، ورشاش الماء يتناثر من النواجيد إلى الأحجار. ودائمًا ما يكون الجو رطبًا وباردًا في نفق الباب أسفل السور الغليظ المصنوع من الآجُرِّ والطين. وبالرغم من أن موسم الخوخ لم يكن قد حل بعد، كانت هناك بطول السور سلال من الخوخ الأخضر الجاف الصغير.

فقال وانج لنج لنفسه:

«إذا كانت تحب الخوخ، اشتريت لها حفنة منه ونحن عائدان.» وكان من العسير عليه أن يصدق أنه سيخرج عائدًا من الباب ومن خلفه تمشي امرأة.

اتجه الفتى إلى اليمين داخل الباب، وبعد لحظة كان في شارع الحلاقين ولم يكن قد جاء به مبكرًا إلا عدد قليل. كان الحلاقون واقفين في صف طويل على امتداد الطريق، خلف حواجز صغيرة. فتقدَّم وانج لنج إلى أبعد حلاق، وجلس على الكرسي. فأقبل إليه الحلاق في الحال، وأخذ يصب الماء الساخن بسرعة في طاسة.

وسأله الحلاق بقوله: هل أحلق كل شيء؟

فأجاب وانج لنج: «كما تريد .. كما تريد.»

ثم سمح للحلاق بأن يضع الصابون، ويدعك، ويحلق له. وبينما كان يحلق الجزء العلوي من جبهة وانج لنج، قال:

«لن يكون منظر هذا الفلاح رديئًا إذا قص شعره. فالمتبع في هذه الأيام أن تُقَص الضفيرة.»

اقترب الحلاق بالموسى من دائرة الشَّعر فوق رأس وانج لنج، فصاح هذا يقول:

«لا أستطيع قصها دون إذن والدي.» فضحك الحلاق وترك بقعة الشعر المستديرة.

بعد أن انتهى وانج لنج من الحلاقة ودفع للحلاق حسابه انتابته لحظة من الفزع. فما أكثر ما دفع! ولكنه ما إن سار في الشارع ثانية حتى أحس بالهواء عليلًا يداعب بشرته المحلوقة، فقال لنفسه: «إنها مرة واحدة في حياتي.»

ثم اتجه شطر السوق فاشترى رطلين من لحم الخنزير، وست أوقيات من اللحم البقري. وبعد أن اشترى كل شيء، حتى المربعات الطازجة من الفول المجمد في الجيلي فوق ورقته، اشترى زوجًا من عيدان البخور، ثم رجع في خجل شديد نحو منزل هوانج.

ما إن صار في باب المنزل، حتى ملأ الرعبُ نفسَه. إذ لم يسبق له أن دخل منزلًا ضخمًا من قبل.

وقف الشاب عند الباب مدة طويلة، ينظر إليه. كان مقفلًا، ويحرسه أسدان من الحجر، واحد على كل جانب. لم يكن هناك كائن غيرهما.

أحس وانج لنج فجأة بالضعف، لأنه لم يأكل شيئًا في ذلك الصباح. فدخل مطعمًا صغيرًا في الطريق، ووضع بنسين على المائدة وجلس. فاقترب منه نادل (جرسون) صغير قذر يرتدي «مريلة» سوداء، فصاح فيه وانج لنج، قائلًا: «قدحان من عصيد الشعرية!» فلمَّا جاءاه التهمهما بشراهة.

ثم سأله الصبي: «أتريد مزيدًا من الطعام؟»

فهز وانج لنج رأسه، واعتدل في مجلسه، وأخذ يتطلع حواليه. لم يكن بها سوى نفر قليل من الرجال جالسين يأكلون ويشربون الشاي. لقد كان المكان كعبة الفقراء فبدا هو وسطهم أنيقًا نظيفًا على جانب من اليسر والرخاء.

جلس وانج لنج حتى ارتفعت الشمس في كبد السماء. ووقف النادل الصبي إلى جانبه يتميز غيظًا، ثم قال أخيرًا في خشونة: «إذا لم تطلب شيئًا آخر فادفع أجر المقعد الذي تجلس عليه.»

غضب وانج لنج، وهَمَّ بالنهوض لينصرف، لولا أنه عندما تذكر الذهاب إلى دار هوانج العظيمة ومطالبته إياهم بالمرأة تصبب العرق من جسمه كله.

فقال للصبي: «أحضر لي شايًا.» وقبل أن يدير جسمه كان الشاي أمامه، والصبي يسأله في غلظة:

«أين البنس؟»

لم يجد وانج لنج مناصًا من أن يُخرج بنسًا آخر من حزامه. ثم شرب الشاي بسرعة، وخرج من الباب الجانبي إلى الطريق واستدار ببطء نحو الأبواب الضخمة.

لما كان الوقت قد جاوز الظهر، في هذه المرة، فإن الأبواب كانت مفتوحة والبوَّاب واقفًا يتلكأ هناك، ينظف أسنانه من طعام الغداء بقطعة من الخشب. فلما أقبل وانج لنج، صاح فيه البواب بخشونة:

«والآن، ماذا تريد؟»

فأجاب وانج لنج في صعوبة بالغة، قائلًا:

«أنا وانج لنج، المزارع.»

فأجاب البواب الذي لم يتعود أن يعامل أحدًا بأدب، غير أصدقاء سيده وسيدته الأثرياء: «وماذا يكون وانج لنج المزارع؟»

فقال وانج لنج هامسًا: «توجد هنا سيدة.» وبدا وجهه في ضوء الشمس مبللًا بالعرق.

فقهقه البواب صائحًا: «إذن، فأنت هو! أخبروني أن أتوقع مجيء عريس اليوم. ولكني لم أعرفك والسلة في ذراعك.»

فقال وانج لنج: «بها قليل من اللحم ليس غير.» وانتظر أن يرشده البواب إلى الداخل. بَيْد أن هذا لم يتحرك، ولما بدا له أن وانج لنج لم يفهم مرامه، قال: «إن قطعة فضية صغيرة لَمفتاحٌ طيب.»

وأخيرًا أدرك وانج لنج أن الرجل يريد منه نقودًا.

فقال: «أنا رجل فقير.»

فقال البواب: «إذن فدعني أرى ما في حزامك.» وتمتم بكلام غير مفهوم عندما رأى وانج لنج يهز في يده اليسرى ما تبقى معه من النقود. كان بها قطعة فضية وأربعة عشر بنسًا من البرنز.

فقال البواب: «سآخذ القطعة الفضية.» وسار عبر الباب يصيح بصوت مرتفع: «العريس .. العريس!»

لم يسع وانج لنج إلا أن يتبعه حاملًا سلته لا ينظر يمينًا ولا شمالًا. وبوجهه المتوهج ورأسه المنتكس، راح يعبر الأبهاء الواحد تلو الآخر ورنات الضحك تبلغ أذنيه من كل حدب وصوب. وفجأة، بعد أن خُيِّل إليه أنه اجتاز مائة بهو، صمت البواب ودفعه إلى حجرة استقبال صغيرة. فوقف الفتى وحده بينما انطلق البواب إلى الداخل، ثم عاد بعد لحظة، يقول:

«قالت السيدة العجوز، إنك لا بد أن تحضر أمامها.»

تقدم وانج لنج إلى الأمام. ولكن البواب صاح يستوقفه باحتقار قائلًا: «لا يمكنك أن تقف أمام سيدة عظيمة وفي ذراعك سلة.»

فقال وانج لنج: «حقًّا .. حقًّا.» ولكنه لم يجرؤ على أن يضع السلة على الأرض خشية أن يُسرَق منها شيء. فلاحظ البواب خوفه وصاح فيه بازدراء بالغ: «إننا، في منزل كهذا، نقدم مثل هذا اللحم إلى الكلاب!» وأمسك السلة ووضعها خلف الباب، ودفع وانج لنج أمامه إلى بهو لم تقع عينه على مثله في حياته.

رأى سيدةً عجوزًا للغاية تجلس في وسط الحجرة وترتدي على جسمها الصغير الرقيق ثيابًا من «الساتين». جثا وانج لنج على ركبتيه، وطرق الأرض برأسه.

فقالت السيدة للبواب: «أنهضه. هل أتى يطلب المرأة؟»

فأجاب البواب: «نعم، أيتها السيدة العتيقة.»

فنظرت إليه السيدة العجوز مليًّا، وقالت: «إذن فقد أتيت من أجل العبدة المسماة «أو-لان». أذكر أننا وعدنا بأن نزوجها لأحد الفلاحين، فهل أنت ذلك الفلاح؟»

فأجاب وانج لنج: «نعم، إنني هو.»

فقالت السيدة العجوز لإحدى الإماء بجوارها: «استدعي «أو-لان» بسرعة.» وفي لحظة عادت الأَمَة تمسك بيد امرأة فارعة الطول، ترتدي سروالًا وسترة نظيفتين، من المنسوج القطني الأزرق. فنظر إليها وانج لنج مرةً واحدة، ثم أشاح بنظره بعيدًا. وكان قلبه يخفق. هذه هي امرأته.

فقالت السيدة العجوز في تراخٍ: «تعالي إلى هنا يا عبدة. لقد جاء هذا الرجل يطلبك. فهل أنت مستعدة!»

فأجابت المرأة ببطء: «مستعدة.»

سمع وانج لنج صوتها لأول مرة، فنظر إلى ظهرها وهي واقفة أمامه. كان صوتها حلوًا بما فيه الكفاية. ليس عاليًا ولا ناعمًا، بل كان بسيطًا وغير فظ. وكان شعرها مُرتَّبًا، وسترتها نظيفة. ولكن خاب ظنه عندما رأى أن قدميها ليستا ملفوفتين.

بعد ذلك قالت السيدة العجوز للبواب: «احمل صندوقها خارجًا حتى الباب، ودعهما ينصرفان.» ثم خاطبت وانج لنج، وقالت له: «قف بجانبها وأنا أتكلم.» فلما تقدم وانج لنج قالت له: «جاءت هذه المرأة إلى بيتنا وهي طفلة في العاشرة من عمرها. وعاشت عندنا حتى الآن إذ بلغت العشرين. كنت اشتريتها في إحدى سنوات القحط عندما جاء بها والدها من الجنوب لأنهما لم يجدَا ما يأكلانه. إنها غير جميلة، كما أنها ليست ماهرة، بل تفعل جيدًا ما تؤمر بفعله. وهي حسنة الطباع. خذها وانتفع بها على خير وجه. إنها أَمَة طيبة رغم أنها بطيئة وحمقاء ولولا رغبتي في القيام بعمل صالح في المدة الباقية لي في هذه الحياة الدنيا بتزويد المعمورة بمزيد من النسل لاحتفظت بها لنفسي لما تمتاز به من مهارة فائقة في المطبخ. غير أنني أزوِّج عبداتي بمجرد أن يطلبهن أحد.»

ثم قالت للمرأة:

«أطيعيه، وأعطيه البنين، وبنين أكثر. أحضري إليَّ أول طفل لأراه.»

فقالت المرأة: «سمعًا وطاعة، يا سيدتي العتيقة.»

فقالت السيدة العجوز: «حسنًا، انصرفا!» فانحنى وانج لنج بسرعة، واستدار خارجًا، والمرأة تتبعه، وخلفه البواب يحمل الصندوق على كتفه. ثم أنزله في الحجرة التي كان وانج لنج قد ترك فيها سلته ثم اختفى دون أن ينطق بكلمة أخرى.

استدار وانج لنج خلفه إلى المرأة، ونظر إليها لأول مرة. كان وجهُها مربعًا ينطق بالأمانة. وأنفُها قصيرًا عريضًا، وفمُها واسعًا. وعيناها صغيرتين لونهُما أسود معتم، يملؤهما شيء من الحزن. ورأى وانج لنج قرطه يتدلى من أذنيها، ذلك القرط المطلي بالذهب الذي كان قد اشتراه، وفي يديها الخاتمين اللذين قدمهما إليها. ثم استدار يسير في طريقه، فرحًا في دخيلة نفسه. لقد حصل على امرأته!

فقال لها: «هاكِ هذا الصندوق، وهذه السلة.»

انحنت المرأة دون أن تنبس ببنت شفة، وأمسكت بأحد طرفي الصندوق ووضعته على كتفها، ولكنها ناءت بحمله وهي تحاول النهوض. فلاحظ وانج لنج عليها ذلك، وقال فجأة: «سآخذ أنا الصندوق، ودونك السلة.»

رفع وانج لنج الصندوق على ظهره دون تفكير في أنه يرتدي أحسن ثوب لديه. أما هي، فأمسكت بيد السلة.

وأخذ وانج لنج يفكر في المائة بهو التي اجتازها، وفي الضحك الذي ترامى إلى سمعه ثم تمتم قائلًا: «ألا يوجد باب جانبي؟!» عندئذٍ قادته في الطريق عبر بهو صغير غير مستعمل، به باب عتيق مستدير، مرًّا منه إلى الشارع.

نظر وانج لنج خلفه، مرة أو مرتين، ليراها. كانت تسير معه، كما لو كانت تسير في ذلك الطريق طول حياتها، لا يبدو في وجهها العريض ما يعبر عن شيء. ثم وقف الفتى عند باب السور، وبحث داخل حزامه عن البنسات الباقية معه، وأخرج بنسين اشترى بهما ست خوخات صغيرات خضراء، وقال: «خذي هذه وكليها.» فأخذتها في شراهة، وأمسكتها بيدها دون أن تنطق بكلمة. ولما نظر إليها ثانية، كانت تقضم خوخة. بَيْد أنها لما رأته ينظر إليها، أخفت الخوخة بيدها، وأبقت فمها ساكنًا لا يتحرك.

وهكذا سارَا حتى وصلا إلى الحقل الغربي حيث يوجد معبد الأرض. وهو معبد منخفض، لا يعلو كله إلى أكثر من كتفَي الرجل. وقد بناه جد وانج لنج من الآجُرِّ الرمادي، وسقَّفه بالقرميد.

كان بداخل المعبد تمثالان صغيران وقوران، صُنِعَا من تربة الحقول المحيطة بالمعبد، وَهُمَا لرب الأرض نفسه وزوجته. يرتديان ملابس من الورق الأحمر والمذهب. وكان والد

وانج لنج، يشتري في كل عام بعض فروخ من الورق الأحمر، يقصها ويلصقها بعناية لتكون ثوبَين جديدَين لرب الأرض وزوجته. وفي كل عام كان المطر والثلج يهطل داخل المعبد، وتسطع شمس الصيف بأشعتها داخل المعبد، فتُتلِف الثوبَين.

وكان الثوبان لا يزالان وقتئذٍ جديدَين. فأخذ وانج لنج السلة من ذراع السيدة وبحث بعناية عن عودَي البخور أسفل لحم الخنزير، فغرسهما جنبًا إلى جنب في رماد عيدان البخور الأخرى التي كانت هناك، إذ كانت جميع المنطقة المحيطة تعبد هذين التمثالين الصغيرين. ثم أشعل لهبًا من حجر القداحة وقطعة الحديد، وأوقد عودَي البخور.

ووقف الرجل وامرأته معًا أمام ربَّي الحقول، في سكون تام، إلى أن احترق عودَا البخور وتحوَّلَا إلى رماد. ثم حمل وانج لنج الصندوق، وسار مع المرأة إلى المنزل.

كان الشيخ العجوز واقفًا عند باب البيت ليودع آخر أشعة الشمس في غروبها. لم يكن في مقدوره أن يرى المرأة، ولكنه صاح قائلًا: «تلك السحابة المتعلقة على القرن الأيسر للقمر الجديد تبشر بالمطر.» وما إن أبصر وانج لنج يتناول السلة من المرأة حتى صاح ثانية: «وهل أنفقت نقودك كلها؟»

وضع وانج لنج السلة على المائدة، وقال: «سيكون عندنا ضيوف في هذه الليلة.» ثم حمل الصندوق إلى الحجرة التي ينام فيها، ووضعه بجانب صندوق ملابسه، وحمل السلة إلى المطبخ، وتبعته المرأة إلى هناك ثم أخرج الطعام من السلة، وقال لها: «هنا لحم خنزير، ولحم بقري، وسمك. سيكون عدد الآكلين سبعة. أتستطيعين إعداد الطعام؟»

فأجابته بصوتها البسيط: «كنتُ أمَة مطبخ منذ أن ذهبت إلى بيت هوانج. وكان هناك لحم في كل وجبة.»

فأومأ وانج لنج برأسه وتركها. ولم يرها بعد ذلك إلا عندما حضر الضيوف، عمه وابن عمه، ومزارعان من القرية، وجاره تشنج. وكان هذا رجلًا صغيرًا هادئًا يعزف عن الكلام إلا إذا لزم الأمر. وبعد أن جلسوا في الحجرة الوسطى، ذهب وانج لنج إلى المطبخ ليخبر المرأة بأن تُقدم الطعام. ثم اغتبط عندما قالت له: «سأناولك الأطباق، وأنت تضعها على المائدة. لا أحب أن أخرج أمام الرجال.»

شعر وانج لنج بزهو بالغ، إذ لم تَخَف امرأته من أن تظهر أمامه، ولكنها لا تظهر أمام الرجال الآخرين. فأخذ الأطباق ووضعها على المائدة في الحجرة الوسطى، ورجا وانج لنج ضيوفه أن يأكلوا. فأكلوا بشهية من الطعام الجيد. وامتدح جميعُهم الطهو. وكان وانج لنج يجيبهم في كل مرة بقوله: «إنه طعام متواضع، ورديء الإعداد.»

بَيْد أنه كان مسرورًا في دخيلة نفسه من جودة إعداد الأطباق. لأن المرأة كانت بمهارتها قد استخلصت كل ما في اللحم من مذاق، حتى إن وانج لنج نفسه لم يسبق له أن ذاق طعامًا مثل هذه الأطباق، على موائد أصدقائه.

بعد أن انتهى الضيوف من تناول الشاي، ومن مزاحهم، في تلك الليلة، وانصرف آخر فرد منهم، دخل وانج لنج المطبخ، فإذا بالمرأة نائمة خلف الموقد على القش بجانب الثور. فأخذها من يدها وقادها إلى الحجرة التي استحم فيها في صبيحة ذلك اليوم. وأضاء شمعة حمراء، ووضعها فوق النضد، فانزوت المرأة خلف ركن الستارة، وبدأت تستعد للنوم.

الباب الثاني

أصبح الصباح التالي، فبقي وانج لنج راقدًا على ظهره فوق السرير، ينظر إلى المرأة. ولما علا صوت سعال الشيخ الهَرِم عند الفجر، قال لها: «خذي قدحًا من الماء الساخن إلى والدي، لأجل رئتيه.»

فسألته: «وهل أضع فيه أوراق الشاي؟»

أمضَّ هذا السؤال وانج لنج. كان بوده أن يقول لها: «لا بد من أوراق الشاي طبعًا أم تراك تحسبيننا شحاذين؟» كان بوده أن تعتقد المرأة أنهم يشربون أوراق الشاي دائمًا. غير أنه كان يعلم أن والده سيغضب إذا قدمت له المرأة شايًا، بدلًا من الماء الصرف، في أول يوم. فأجاب بعدم اكتراث: «شاي؟ لا، لا؛ إنه يزيد من حدة السعال.»

ظل وانج لنج راقدًا في فراشه، بينما أوقدت المرأة النار في المطبخ، وسخنت الماء. وجال بفكره فجأة ما إذا كانت قد أحبته.

فُتِحَ الباب ودخلت المرأة في سكونها المعتاد، تمسك بكلتا يديها قدحًا يتصاعد منه البخار. فجلس في فراشه وتناول منها القدح. كان يطفو على سطح الماء بعض أوراق الشاي. فنظر إليها بسرعة، فخافت وقالت:

«لم أقدم شايًا إلى الرجل العجوز .. فعلتُ كما قلتَ لي .. ولكني وضعت لك.»

لاحظ وانج لنج خوفها منه، فأجابها قبل أن تنتهي من كلامها: «لقد أعجبني .. لقد أعجبني.» وشرع يرتشف الشاي في جرعات بصوت عالٍ، دلالة على السرور، وقال في قرارة نفسه: «إن زوجتي هذه لتحبني حبًّا جمًّا.»

خُيِّلَ إليه في الشهور التالية أنه لا يعمل شيئًا غير النظر إلى امرأته. والحقيقة أنه اشتغل كما كان يشتغل من قبل. بَيْد أن العمل كان نوعًا من الترف بالنسبة له لأنه متى عاد إلى بيته، فإنه يجد الطعام مُعدًّا للأكل، والتراب قد أُزِيل من فوق المائدة، وقد وُضِعَت عليها الأطباق وأعواد تناول الطعام، في نظام.

كان وانج لنج إذا ما عاد يجد أرض الحجرة الطينية مكنوسة وكومة الوقود كاملة، ذلك أن المرأة كانت تعود في الظهر ومعها من الحشائش وأوراق الأشجار ما يكفي لطهي الطعام.

أما بعد الظهر فكانت تحمل فأسًا ومقطفًا، وتسير في الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة، تجمع براز البغال والحمير والخيول، وتحمله إلى الدار لأجل الحقول. كانت تقوم بهذه الأعمال دون كلمة واحدة، وبغير أن يأمرها أحد بعملها.

كانت تُصْلِح ملابس الأسرة. وتغسل الفراش وتنشره ليجف. وفي كل يوم كانت تعمل شيئًا، حتى صارت الحجرات الثلاث نظيفة جميلة المنظر، وتحسَّن سعال الرجل العجوز. فكان يجلس في الشمس، يغلبه النعاس دائمًا، دافئًا مسرورًا.

بَيْد أن هذه المرأة لم تكن تتكلم إلا الكلام المختصر الضروري للحياة. وكان وانج لنج، أحيانًا يفكر في أمرها وهو يشتغل في الحقول. كيف كانت حياتها، تلك الحياة التي لم تقاسمه إياها؟ ثم يخجل من فضوله وإعجابه بها. كانت أخيرًا، امرأة ليس غير.

لم يكن في الحجرات الثلاث، ووجبتين من الطعام ما يشغل امرأة طول اليوم. لا سيما وأنها امرأة كانت عبدة في بيت عظيم، تشتغل من الفجر حتى منتصف الليل. وذات يوم، بينما كان وانج لنج يُفَلِّح القمح النامي، حتى يؤلمه ظهره من الإعياء، كان ظلها يقع على الأرض وهناك كانت تقف حاملة فأسًا على كتفها.

كانت تقول: «لا عمل في البيت حتى يخيم الظلام.» وتعمل في الأرض عن يساره، وتستمر في العزق.

عندما غربت الشمس، عدل ظهره ببطء، ونظر إلى المرأة، فإذا وجهها مبلل بالعرق وملوث بالتراب. كان لونها أسمر بلون الأرض نفسها. وبطريقتها البسيطة المعتادة، قالت: «إنني حُبلَى.»

وقف وانج لنج ساكنًا. لقد انتفخ قلبه فخرًا، فخطف الفأس من يدها، قائلًا: «اتركي هذه الآن. لقد انتهى النهار. سنخبر الرجل العجوز بهذه البُشرى.»

سار الرجل وامرأته عائدين إلى المنزل، وقد تأخرت خلفه بست خطوات، كما كان يليق بالسيدات. وكان الشيخ الهَرِم واقفًا عند الباب جوعان يريد طعام العَشاء، لم يُطق صبرًا، فصاح يقول: «لقد بلغت من الكِبَر عتيًّا ولا يمكنني الانتظار بدون طعام إلى هذا الوقت!»

أما وانج لنج فأنبأه بما أخبرته به زوجته، فقهقه الرجل المسن ضاحكًا وصاح في زوجة ابنه وهي تدخل قائلًا: «ها .. ها .. ها .. إن الحصاد لَقريبٌ إذن!»

الباب الثالث

لما اقترب موعد ولادة الطفل، قال وانج لنج لزوجته: «يجب أن نأتي بمَن يساعدنا في هذا الوقت .. أية امرأة.»

بَيْد أن المرأة هزت رأسها. كانت ترفع الأطباق من فوق المائدة بعد الانتهاء من طعام العَشاء .. فذهب الرجل العجوز إلى مخدعه، وبقي الاثنان وحدهما في الليل.

فسألها في دهشة: «ألا توجد امرأة؟ كانت مع والدتي سيدة من القرية. ألا توجد أَمَة عجوز في البيت العظيم تستطيع المجيء؟»

كانت هذه أول مرة يذكر فيها وانج لنج البيت التي جاءت منه فاستدارت إليه بصورة لم يسبق له أن رآها وقد ارتسمت على وجهها أمارات الغضب الكئيب.

وصاحت فيه: «لا يوجد أحد في ذلك البيت!»

أنزل وانج لنج غليونه، الذي كان قد ملأه، وحملق فيها.

فقال مدهوشًا: «لديَّ فكرة!» ولكنها لم تنبس ببنت شفة. فاستأنف حديثه، يقول: «نحن، الرجلين، لا ندري شيئًا في مثل هذه الأمور. فإذا جاءت إحدى النساء من المنزل العظيم ...»

حدجته بنظرها، وبعد لحظة من النظر إليه، قالت: «عندما أعود إلى ذلك البيت، ستكون عودتي ومعي ابني بين ذراعيَّ. سألبسه معطفًا أحمر، وسروالًا أحمر مُزيَّنًا برسوم الأزهار، وأضع على رأسه قلنسوة موشاة من الأمام برسم بوذا مذهبًا، ومعطفًا جديدًا من الساتين الأسود، وسأتوجه إلى المطبخ الذي قضيت فيه حياتي. وسأذهب إلى البهو العظيم حيث تجلس السيدة العجوز، وسأريهم جميعًا نفسي وابني.»

لم يسمع وانج لنج منها مثل هذه الألفاظ كلها، من قبل. فما أغربها! كان يظن أنها لن تفكر في الطفل قط. إذ كانت دائبة على عملها في هدوء.

وأخيرًا قال: «أظنك ستحتاجين إلى شيء من النقود.»

فقالت بخوف: «هل لك أن تعطيني ثلاث قطع فضية. إنها مبلغ عظيم. ولكني حسبت كل شيء بدقة، ولن أبذِّر منها بنسًا واحدًا.»

تحسَّس وانج لنج حزامه. كان قد باع في اليوم السابق حِملًا ونصف حمل من الغاب، قطعه من البركة الموجودة بالحقل الغربي. فوضع الريالات الثلاثة على المائدة. وبعد تردد قليل أضاف ريالًا رابعًا.

وقال وهو يشعل غليونه: «يحسن أن تأخذي هذا أيضًا. قد تصنعين معطفه، بقطعة صغيرة من الحرير. وعلى أية حال، إنه الولد البكريُّ.»

لم تأخذ النقود في الحال، بل وقفت تنظر إليها، ثم قالت في شبه همس: «هذه أول مرة أمسك فيها بيدي نقودًا فضية.»

وفجأة أخذت النقود وأسرعت إلى حجرة النوم.

جلس وانج لنج يدخن، ويفكر في النقود الفضية وهي موضوعة على المائدة. ففي كل مرة قبل ذلك، كانت النقود التي تخرج من يده ليأخذها أي إنسان، أشبه بأخذ قطعة من حياته وإعطائها شخصًا آخر بإهمال. أما الآن، فكانت هذه أول مرة تخرج فيها النقود من يده دون أن يتألم لها. لأنه رأى النقود الفضية تتحول إلى ملابس فوق جسد ابنه. وأن امرأته الغريبة هذه، التي كانت تشتغل في صمت، والتي يبدو أنها لا ترى شيئًا، قد رأت أن يُكسى الطفل هكذا.

لن يكون معها أحد عندما تحين ساعة الولادة وقد أتت تلك الساعة ذات ليلة، في أولها والشمس ما كادت تغرب. كانت تشتغل إلى جانبه في حقل الحصاد. كانا يقطعان الحزم طول النهار. وبدأت تقطع ببطء متزايد، بينما مضى الظهر، وجاء بعده العصر، ثم المساء، فاستدار لينظر إليها في قلق. فوقفت ورفعت بصرها إلى فوق.

قالت: «لقد أتت ساعة المخاض. سأذهب إلى المنزل. لا تدخل الحجرة حتى أناديك.»

سارت الزوجة وسط الحقول إلى المنزل، فوقف زوجها يلاحظها. كان ظلام الخريف السريع يخيم على الكون، وسرعان ما يتبعها إلى الدار.

عندما بلغ وانج لنج البيت وجد العَشاء ساخنًا على المائدة، ووجد والده العجوز يتعشى. لقد وقفت تُعد طعامهم. فذهب إلى باب حجرتهما وناداها، متوقعًا أن ترد عليه، ولكنها لم تفعل.

رفع الشيخ العجوز بصره عن الطبق، ليقول:

«تناول الطعام، وإلا برد كل شيء، لا تشغل بالك بعد .. أمامك وقت طويل.» ثم قال ثانية، كأنما تذكَّر شيئًا من فوره: «قد أكون غدًا في مثل هذه الساعة جدًّا لطفل ذَكر!» ثم جلس هادئًا يضحك لمدة طويلة في ظلام الحجرة.

أما وانج لنج فوقف ينصت عند باب حجرتهما، وإذ تعذر عليه سماع أي شيء، وكان على وشك اقتحام الحجرة، سمع صرخة حادة، فنسي كل شيء.

نسي وانج لنج امرأته وصاح متسائلًا: «أهو رجل؟» فردَّ عليه صوتها ضعيفًا: «رجل.»

ذهب وانج لنج إلى المائدة حيث جلس. وكان الطعام قد برد منذ مدة طويلة، والرجل الهَرِم نائمًا على المقعد. بَيْد أن كل هذا حدث في سرعة. فهز كتف الشيخ العجوز.

صاح وانج لنج ظافرًا، يقول: «إنه طفل رجل! إنك جد وأنا أب!»

استيقظ الرجل المسن فجأة وبدأ يضحك كما كان يضحك قبل أن ينام.

أخذ وانج لنج طبق الأرز البارد وشرع يأكل. وبعد أن تناول منه كفايته، ذهب إلى الباب ثانية، فنادته ليدخل. كانت الشمعة الحمراء موقدة، وهي راقدة فوق السرير عليها الأغطية مرتَّبة، ويرقد إلى جانبها ابنه ملفوفًا في سروال والده القديم، كما هي العادة في تلك المنطقة.

ذهب إلى الفراش، فوقف صامتًا برهة لا يفوه بكلمة. ثم انحنى على الطفل وتفرَّس فيه. لقد كفَّ عن البكاء، ورقد مغمضًا عينيه تمامًا.

نظر وانج لنج إلى زوجته، فنظرت إليه. لقد اندفع قلبه نحوهما، فقال وهو لا يدري ما يقول أكثر من ذلك: «سأذهب غدًا إلى المدينة وأشتري رطلًا من السكر الأحمر وأخلطه بالماء الساخن كي تشربيه. ويجب أن نشتري أيضًا ملء سلة من البيض، ونصبغه باللون الأحمر، ونوزعه في القرية، حتى يعرف كل فرد أن لي ابنًا!»

الباب الرابع

نهضت المرأة في اليوم التالي لمولد الطفل، كعادتها. فأعدت الطعام للأسرة، ولكنها لم تذهب إلى حقول الحصاد مع وانج لنج. وعلى ذلك بقي يشتغل وحده إلى ما بعد وقت الظهيرة. ثم ارتدى ثوبه الأزرق واتجه شطر المدينة، فذهب إلى السوق واشترى خمسين بيضة، واشترى ورقًا أحمر ليغليه في الماء معها كي يصبغ البيض أحمرَ. ثم ذهب إلى حانوت الحلويات واشترى رطلًا ونيفًا من السكر الأحمر، ورأى بائع السكر وهو يضع شريطًا من الورق الأحمر تحت الخيط الذي يلف به السكر، ويبتسم وهو يفعل هذا، قائلًا: «ربما كان هذا السكر لأم طفل حديث الولادة؟»

فقال وانج لنج فخورًا: «ابن بكريٌّ.»

فأجاب الرجل: «أتمنى لكم حظًّا سعيدًا.» وخُيِّل إلى وانج لنج أنه أسعد الناس حظًّا.

بعد ذلك عرج وانج لنج على حانوت صانع الشمع، الذي كان يبيع البخور أيضًا، واشترى منه أربعةَ عيدان من البخور؛ عودًا لكل فرد من أفراد المنزل، وانطلق بها إلى المعبد لإلهَي الأرض.

قبل أن يعلم أحد بما حدث، كانت المرأة تعمل ثانية في الحقول بجانب زوجها. وانتهى الحصاد، ووُضِعَ الحَب في المخزن. ثم جاء وقت زراعة الحقول من جديد بقمح الشتاء.

كانت تعمل طول النهار بينما يرقد الطفل نائمًا على الأرض فوق لحاف قديم ممزَّق.

جاء الشتاء فكانوا على استعداد له. وامتلأت جميع الحجرات بجرار كبيرة من حصير الغاب مملوءة بالقمح والأرز. ولسوف يباع كثير من هذه الحبوب عندما ينزل الثلج على الأرض، أو في عيد رأس السنة، إذ عندئذٍ يدفع أهل المدينة ثمنًا عاليًا للأطعمة.

كان عمه يبيع حبوبه دائمًا قبل أن تنضج. كان أحيانًا يبيع الحبوب وهي ما تزال قائمة في حقولها، وليوفر على نفسه مشقة حصادها. أما زوجة عمه فكانت امرأة غبية، بدينة وكسلانة، تطلب باستمرار فاخر الطعام، وتشتري الأحذية الجديدة من المدينة. أما زوج وانج لنج فكانت تصنع بنفسها جميع الأحذية اللازمة لزوجها وَلِحَمِيها وللطفل ولها. وكان في بيت وانج لنج فخذ خنزير اشتراها من جاره تشنج. كانت فخذًا كبيرة ملَّحتها أو-لان تمامًا وعلَّقتها لتجف.

كانوا يمكثون في البيت وسط كل هذا الرخاء، عندما تهب رياح الشتاء من الصحراء متجهة نحو الناحية الشمالية الشرقية لبيتهم — وكانت رياحًا شديدة قارسة البرودة. وسرعان ما كان في مقدور الطفل أن يجلس وحده. وكان كل فرد يحسد وانج لنج على ذلك الابن ذي الوجه الهلالي الكبير البارز عظام الوجنتين، كوجه أمه.

تَحُول هذه الريح الجافة دون نمو القمح الموجود بالأرض، وكان وانج لنج ينتظر الأمطار في شوق بالغ. وفجأة هطلت الأمطار ذات يوم هادئ غائم، وقد مكثوا جميعًا في البيت، يراقبون الأمطار تسقط مستقيمة وتنزل في الحقول. أما الطفل فدهش ومد يده ليمسك خيوط المطر الفضية وهي تسقط. وكان يضحك وأهله يضحكون معه.

أما في الحقول فنبتت بذور القمح، وظهر مجموعها الخضري ناضرًا فوق التربة البليلة ذات اللون البني.

في مثل ذلك الوقت يكثر التزاور، إذ يشعر كل فلاح بأن السماء تقوم مرةً بالعمل في الحقول. فكانوا يجتمعون في الصباح في هذا البيت وذاك، يشربون الشاي.

غير أن وانج لنج وزوجته لم يكونا كثيرًا التزاور. لم يكن هناك بيت في تلك القرية ذات المنازل القليلة المتناثرة، ممتلئ بالدفء والخير كمنزلهما. وكان وانج لنج يحس بأنه إذا اتسعت صداقته مع غيره، اقترضوا منه. اقترب عيد رأس السنة الجديدة، ومَن ذا الذي كانت لديه جميع النقود التي يحتاجها للملابس الجديدة وطعام ولائم العيد؟! .. وعلى هذا كان وانج لنج يبقى في منزله. فبينما تُصلح زوجته الثياب وتخيطها، كان هو يُصلح شوكاته الخيزرانية التي يجمع بها الحشائش والأعشاب. فيأخذ خيطًا جديدًا يجدله من القنب الذي زرعه بنفسه، ويلفه على الشوكة موضع خيط قديم يكون باليًا. أو يستبدل قطعة مكسورة من الخيزران بأخرى جديدة.

ما كان يصنعه وانج لنج لأدوات الزراعة، كانت تصنعه زوجته أو-لان لأدوات البيت.

حصل وانج لنج في هذه السنة الطيبة على حفنة من الريالات الفضية زيادة على ما كانوا يحتاجون إليه. وكان يخاف أن يحتفظ بها في حزامه أو يخبر بها أي فرد سوى

زوجته. فأخذَا يُعمِلان فكرَهما في موضع يخبِّئان فيه تلك النقود الفضية. وأخيرًا حفرت المرأة حفرة في الجدار الداخلي لحجرتهما خلف السرير، فأخفى فيه وانج لنج نقوده، وسدَّت المرأة الحفرة بعناية بقطعة من الطين، فكأنما لا يوجد بالحائط شيء. بَيْد أن ذلك الشيء جعل كلًّا منهما يحس في سِرِّه بالغنى.

الباب الخامس

أقبل عيد رأس السنة فكانت الإعدادات قائمة على قدم وساق في كل بيت. فذهب وانج لنج إلى المدينة واشترى من صانع الشمع فروخًا وشرائط من الورق الأحمر لصقها على باب منزله وعلى أدواته الزراعية، لتجلب له الحظ السعيد. واشترى ورقًا أحمر ليصنع منه ملابس لربَّي الأرض. وهذه كان يصنعها والده العجوز بمهارة فائقة. فأخذها وانج لنج وألبسها الربَّين الصغيرين في معبد الأرض. وأحرق أمامهما قليلًا من البخور، احتفاءً بالسنة الجديدة.

بعد ذلك ذهب وانج لنج إلى المدينة ثانيةً واشترى بعضًا من دهن الخنزير ومن السكر الأبيض، فأخذتهما امرأته ومزجتهما، وصنعت منهما كعكات فاخرة لعيد السنة الجديدة، أطلق عليها القوم اسم «كعكات القمر»، كالتي تؤكل في بيت هوانج.

عندما وُضِعَت الكعكات على المائدة، استعدادًا لإدخالها الفرن، كان وانج لنج على استعداد لأن ينفجر زهوًا. فما من امرأة غيرها في القرية كلها تستطيع أن تعمل ما عملته امرأته .. تعمل كعكات كالتي لا يأكلها سوى الأغنياء في الولائم.

فقال: «من المؤسف أن تؤكل هذه!»

وقالت المرأة ويداها مغبرتان بالدقيق الناعم، وملبَّكتان بالدهن: «لسنا أغنياء لدرجة أن نأكل السكر الأبيض ودهن الخنزير. إنني أصنع هذه للسيدة العجوز صاحبة البيت العظيم. سأحمل إليها الطفل في ثاني يوم لعيد السنة الجديدة، وأقدِّم لها هذه الكعكات كهدية.»

صار كل شيء غير ذي بال في عيد السنة الجديدة، ما عدا هذه الزيارة. فعندما ارتدى وانج لنج سترته القطنية السوداء الجديدة التي صنعتها له أو-لان، قال في نفسه: «سألبسها عندما آخذهما إلى باب البيت العظيم.»

وفي اليوم الثاني من السنة الجديدة، وهو اليوم الذي تتزاور فيه السيدات، بعد أن طعِمَ الرجال وشربوا جيدًا في اليوم السابق، استيقظ وانج لنج وزوجته ساعة أن لمع الفجر في أفق السماء، فألبست المرأة الطفل معطفه الأحمر، وحذاءه ذا وجه النمر الذي صنعته له. ثم وضعته على السرير. وارتدى وانج لنج ملابسه بسرعة بينما مشطت زوجته شعرها الفاحم الطويل، وربطته من أسفل بدبوس نحاسي مطلي بالفضة كان قد اشتراه لها. ولبست معطفها الجديد الأسود ... حمل الرجلُ الطفلَ، وحملت المرأة الكعكات في سلة، ثم خرجَا إلى الطريق يسيران وسط الحقول.

بعد ذلك نال وانج لنج مكافأته عند باب دار هوانج العظيمة. فعندما أقبل البواب بعد أن نادته المرأة، فتح عينيه وتطلع إلى مَن أمامه، وصاح: «هذا هو الفلاح وانج. ثلاثٌ هذه المرة بدلًا من واحدة! لا حاجة بالمرء أن يتمنى لك حظًّا سعيدًا هذا العام أكثر مما لقيته في العام الماضي. تفضل بالجلوس في غرفتي الحقيرة ريثما أوصل زوجتك وابنك إلى الداخل.»

خُيِّل إلى وانج لنج أنه مضى وقت طويل قبل أن يعود البواب مع المرأة والطفل. وكان السرور باديًا على وجه المرأة، فتلهف وانج لنج إلى سماع ما حدث.

بعد أن أسرع مع أو-لان بعيدًا، قال لها: «خيرًا؟» فاقتربت منه قليلًا وقالت هامسة: «أعتقد، إذا سألني سائل، أن الحالة المالية لذلك البيت قد تدهورت في هذه السنة.»

فسألها وانج لنج: «ماذا تقصدين؟»

قالت: «إن السيدة العجوز تلبس في هذا العام نفس المعطف الذي كانت تلبسه في العام الماضي. لم أرَ هذا يحدث من قبل إطلاقًا. كذلك لم تحصل الإماء على ثياب جديدة. أما ابننا فلم يكن هناك أي طفل يمكن أن يُقارَن به، سواء في الجمال أو في الملبس.»

ارتسمت على وجهها ابتسامة وهي تقول هذا، فضحك وانج لنج بصوت مرتفع، ثم قال لها: «وهل عرفتِ سبب تدهورهم المالي؟»

قالت: «أخبرتني الطاهية، التي كنت أعمل تحت إمرتها من قبل، أن الأمراء الصغار، وهم خمسة، كانوا ينفقون الأموال كأنها المياه، في البلاد الأجنبية. وأن الابنة الثالثة ستتزوج في الربيع، ولا تريد إلا خير الأشياء وأرقاها. لا بد أنهم صاروا أفقر من ذي قبل، لأن السيدة العجوز نفسها أخبرتني بأنهم يرغبون في بيع قطعة الأرض الواقعة إلى جنوب البيت خارج سور المدينة مباشرة حيث كانوا يزرعون الأرز دائمًا.»

فكرر وانج لنج حديثها: «يبيعون أرضهم! إذن فهم في طريق الفقر حقًّا. إن الأرض لحم الإنسان ودمه.»

وبغتة طرأت على باله فكرة. فاستدار إلى المرأة وقال: «أتدرين ما لم أفكر فيه! سنشتري تلك الأرض!»

أخذ كل منهما يحملق في الآخر ... هو في سرور، وهي في ذهول.

ثم صاح وانج لنج في لهجة الأمراء: «سأشتريها من بيت هوانج العظيم!»

فقالت: «إنها بعيدة جدًّا. سنضطر إلى أن نسير نصف الصباح حتى نصل إليها.»

عاد قوله: «سأشتريها.»

كفت المرأة فجأةً عن الاعتراض وقالت: «اشترها. فعلى أية حال، أرض الأرز طيبة. وهي قريبة من خندق الماء، ومن المؤكد أن في استطاعتنا الحصول على الماء طول العام.»

ارتسم الابتسام على وجهها في بطء، وقالت بعد فترة من الوقت: «في مثل هذا الوقت من العام الماضي كنت عبدةً في ذلك البيت.»

سار الاثنان بعد ذلك صامتَين يفكران في هذا الأمر.

الباب السادس

غَيَّرَت قطعة الأرض الجديدة التي اشتراها وانج لنج مجرى حياته تغييرًا عظيمًا. فذهب ليراها في يوم غائم من الشهر الثاني في العام الجديد. لم يعلم أحد بعد، أنها له، وقد خرج لمعاينتها وحده. إنها مربع طويل من الطين الأسود الثقيل، يمتد إلى جانب خندق المياه المحيط بسور المدينة. وبينما هو ينظر إلى ذلك المربع الطويل من الأرض، فكر في نفسه: «هذه الحفنة من الأرض ليست شيئًا بالنسبة إلى البيت العظيم، أما بالنسبة إليَّ فهي شيء كثير!»

أقبل الربيع برياحه الشديدة وسحبه المطيرة الممزقة. وكانت أيام الشتاء، التي يبقى المرء فيها نصف خامل، بالنسبة إلى وانج لنج، حافلة بأيام طويلة من العمل الشاق في أرضه. كان الرجل العجوز وقتئذٍ يُعنَى بأمر الطفل، بينما تشتغل المرأة مع زوجها من الفجر حتى مغرب الشمس. ولما عرف وانج لنج، ذات يوم، أنها ستلد طفلًا آخر، كان أول ما فكر فيه هو أنها لن تستطيع العمل في الحصاد.

لم يُفتَح باب الحديث في أمر الطفل المنتظر، زيادة على هذا حتى حان موعد ولادته في الخريف. فتركت المرأة فأسها ذات صباح، وعادت إلى المنزل تجرُّ قدميها جرًّا .. لم يرجع وانج لنج في ذلك اليوم لتناول طعام الغداء في بيته، إذ كانت السماء محملة بالسحب المشحونة بالمطر. وكان الأرز تام النضج في حقله يتطلب حصده في حُزَم.

فسألها دون أن يتوقف عن العمل: «أهو ذكر أم أنثى؟»

فأجابت في هدوء: «إنه ذكر آخر.»

لم يتحدث كل منهما إلى الآخر بأكثر من هذا. ولكنه كان مسرورًا، وعندئذٍ فقط كانَا قد انتهيَا من حصد الحقل، فعادَا إلى البيت.

بعد أن تناول وانج لنج طعامه، دخل ليرى ابنه الثاني. أما أو-لان فرقدت على السرير بجانب الطفل، بعد أن أعدت الطعام. فنظر إليه وانج لنج، ثم عاد إلى الحجرة الوسطى مغتبطًا .. ابن في كل عام .. لم تأته هذه المرأة إلا بالحظ السعيد. فصاح يقول لوالده: «الآن، أيها الرجل العجوز، بما أنه يوجد حفيد آخر، فسنضع الطفل الكبير في سريرك!»

ابتهج الشيخ المسن، إذ كان يتلهف منذ وقت طويل لأن ينام ذلك الطفل في سريره كي يدفئه. ولكن الطفل لم يكن يرغب في أن يفترق عن أمه. أما الآن، فيبدو أنه فهم أن شخصًا آخر قد احتل مكانه، فسار بقدمين مترنحتين غير متزنتين، ورضي بأن ينام في سرير جده.

كان المحصول وفيرًا هذا العام أيضًا. وجمع وانج لنج نقودًا فضية من بيع غلة أرضه، وأخفاها ثانية في الحائط. والآن عرف كل فرد أن وانج لنج يملك قطعة الأرض الجديدة.

الباب السابع

بدأ عم وانج لنج يكون مصدر متاعب، في ذلك الوقت. وكان وانج لنج يخشى تلك المتاعب منذ البدء. فعندما كان وانج لنج ووالده فقيرَين، كان هذا العم يجد ما يكفي قوته وقوت زوجته وأولاده السبعة. ولكنهم ما إن يُطعَموا حتى لا يشتغل أحد منهم قط. وكان من العار — وقد كبرت البنات — أن يَجُبنَ طرقات القرية. والأدهى من هذا، أنهن كن يتحدثن إلى الرجال.

عندما التقى وانج لنج بابنة عمه، ذات يوم، استشاط غضبًا لدرجة أنه تجرأ على الذهاب إلى امرأة عمه، وقال لها: «مَن ذا الذي سيتزوج فتاة كابنة عمي؟»

لم يكن في جسد زوجة عمه عضو نشيط غير لسانها. فأطلقته عندئذٍ على وانج لنج، فقالت: «حسنًا! ومَن سيدفع نفقات الزواج؟ كل شيء سهل على مَن يتكلم ويملك أرضًا أكثر مما يعرف ماذا يفعل بها، ولكن عمك رجل سيئ الحظ.»

انخرطت زوجة عمه في البكاء بصوت عالٍ وبدموع غزيرة. فهرعت جاراتها من منازلهن لينظرن ويسمعن. فوقف وانج لنج في مكانه، وصمم على أن يكمل ما جاء ليقوله.

فقال: «ومع ذلك، فرغم أنه ليس من حقي أن أنصح شقيق والدي، فإني أقول هذا: من الخير أن تتزوج الفتاة وهي صغيرة السن، ولا يُسْمَح بالتجول في الطرقات.»

ما إن تكلم هكذا بصراحة، حتى عاد إلى بيته وترك زوجة عمه تنتحب.

جاء عمه في اليوم التالي إلى الحقل الذي كان يعمل فيه. ولم تكن أو-لان هناك، إذ كانت ستلد طفلًا ثالثًا. لم تكن صحتها جيدة في هذه المرة، وعلى ذلك كان وانج لنج يشتغل وحده.

أقبل عم وانج لنج إلى حيث كان هو، ووقف صامتًا بينما كان وانج لنج يعزق خطًّا ضيقًا من الأرض بجانب الفول العريض الذي كان يزرعه. وأخيرًا تكلم وانج لنج دون أن

ينظر إلى أعلى، فقال: «معذرة يا عماه، إذ لم أتوقف عن العمل. لا شك أنك انتهيت من زراعة فولك، أما أنا فبطيء جدًّا — فلاح معدم — لا أنتهي من عملي في الوقت المناسب، كي أستريح.»

فهم العم جيدًا ما يعنيه وانج لنج، فأجاب: «إنني رجل عاثر الحظ. فمن كل عشرين بذرة فول لم تَنمُ هذا العام إلا فولة واحدة. سنضطر إلى شراء الفول إن كنا نأكله.» ثم تنهد تنهيدًا عميقًا.

جعل وانج لنج قلبه صلبًا كالحجر، لأنه كان يعلم أن عمه قد جاء ليطلب منه شيئًا. وأخيرًا بدأ عمه يتكلم.

«أخبرتني الكائنة التي في منزلي، باهتمامك بأمر عبدتي الكبرى الحقيرة. إنك لأذكى من سنك. يجب أن تتزوج تلك العبدة. ولو كنت أنا غنيًّا مثلك الآن، لاقتسمت ثروتي معك من تلقاء نفسي راضيًا، ولزوجت بناتك لرجال أخيار.»

أسقط وانج لنج فأسه وصاح فجأة، وهو يحملق في عمه: «إن كنت أملك الآن حفنة من الفضة، فذلك لأني أشتغل أنا وزوجتي، ولا نجلس بدون عمل كغيرنا، أو نقضي الوقت في القيل والقال، تاركين حقولنا تتحول إلى أعشاب ضارة، أو نترك أطفالنا نصف جياع!»

غلى الدم في وجه عم وانج لنج الأصفر، واندفع نحو ابن أخيه ولطمه على خديه كليهما، صائحًا: «خذ هذا جزاء مخاطبتك مَن هو في سن والدك بهذه الطريقة!»

وقف وانج لنج مبهوتًا، وقد عرف خطأه، ولكنه حقد في أعماق قلبه على ذلك الرجل الذي كان عمه.

فصاح عمه في صوت ثائر: «سأخبر جميع القرية بما قلتَه. سأخبر به القرية، سأتحدث به في القرية ...» وأخذ يكرر هذه العبارة مرات ومرات، حتى قال وانج لنج مكرهًا: «وماذا تريدني أن أفعل؟»

تغَيَّرَ مسلك عمه في الحال، وابتسم، ووضع يده على ذراع وانج لنج، قائلًا في دعة: «بضع قطع فضية في هذه الكف الفقيرة؛ عشر قطع، أو حتى تسع مثلًا، فأستطيع البدء بعمل الترتيب اللازم مع إحدى الخاطبات بشأن عبدتي.»

التقط وانج لنج فأسه، ثم ألقاها ثانية، وقال في إيجاز: «تعالَ إلى المنزل. إنني لا أحمل معي نقودًا كما يفعل الأمير.» ثم سار أمامه ودخل المنزل، مبعدًا عن طريقه طفليه الصغيرين اللذين كانا يلعبان عاريَين في أشعة الشمس الدافئة. أما عمه فنادى الطفلين وأمسك طفلًا في كل ذراع.

لم ينتظر وانج لنج، بل دخل الحجرة التي تنام فيها زوجته والطفل الأخير. كانت مظلمة جدًّا، فلم يرَ شيئًا. ولكنه لم يعرف أن زوجته ترقد فيها، ونادى في حدة:

«ماذا حدث الآن؟ هل حان وقتكِ؟»

فأجابه صوتها من فوق السرير ضعيفًا أكثر مما سبق أن سمعها تتكلم: «لقد انتهى الأمر مرة أخرى. إنها عبدة فقط في هذه المرة.»

وقف وانج لنج ساكنًا، وقد استبد به إحساس بالشر .. ابنة! إنها ابنة التي سبَّبت كل هذه المتاعب في بيت عمه. والآن قد ولدت ابنة في بيته أيضًا.

اتجه وانج لنج إلى الحائط دون أن يرد عليها، وتحسس خشونته التي كانت علامة المخبأ، وأزال قطعة الطين، وعبث خلفها في كومة الفضة، فَعَدَّ تسع قطع.

عندئذٍ قالت زوجته فجأة، في الظلام: «لماذا أخذت الفضة؟»

فأجابها باختصار: «أنا مضطر إلى إقراضها عمي.»

لم تجب زوجته، أولًا، بشيء. ثم قالت: «يحسن ألا تقول «أقرض»؛ فلا إقراض في هذا المنزل، بل هناك إعطاء فقط.»

فأجاب وانج لنج، والألم يحزُّ في نفسه حزًّا: «أعرف هذا جيدًا.»

خرج وانج لنج، من الحجرة، ودفع النقود إلى عمه، وعاد مسرعًا إلى الحقل.

لم ينصرف غضبه قبل المساء. فاعتدل واقفًا، وتذكر بيته وطعامه. ثم فكَّر في ذلك الفم الجديد الذي قَدِمَ إلى بيته في ذلك اليوم. لم يفكر، من شدة غضبه من عمه، حتى في أن يقف وينظر إلى وجه تلك المخلوقة الصغيرة الجديدة.

وقف وانج لنج مستندًا إلى فأسه يطفح حزنًا وغمًّا. سيمر موسم حصاد آخر قبل أن يتمكن من شراء تلك الأرض، قطعة تجاور القطعة التي اشتراها من قبل. ثم هذا الفم الجديد بالمنزل. وفي تلك الآونة طار فوق رأسه سرب من الغربان ينعق بصوت عالٍ. نظر إلى الغربان فإذا بها تختفي كالسحابة في الأشجار المجاورة لبيته. فجرى إليها يصيح ويلوح بفأسه. فطارت ثانية، ثم حامت حول رأسه مرة ومرتين، وطارت أخيرًا إلى الجو الداجي.

تأوَّه وانج لنج بصوت عالٍ. إنه نذير شؤم.

الباب الثامن

يبدو أنه ما إن تنقلب الآلهة، مرةً، ضد رجل؛ حتى لا تهتم به بعد ذلك مرة أخرى، فقد أحجمت الأمطار، التي كان مقدَّرًا لها أن تهطل في أول الصيف، عن النزول، وصارت السماء صافية يومًا بعد يوم، تضيء في لألاء متجدد وبغير اكتراث.

لَقَّت وجفَّت الحقول وتشققت، واصفرَّت عيدان القمح الناضرة وتحولت إلى محصول عقيم. وغدت أحواض الأرز التي زرعها وانج لنج، إلى مربعات من النبت الأخضر الباهت فوق التربة البنية. كان يحمل إليها الماء، يومًا بعد يوم، بعد أن يئس من القمح، في دلاء خشبية يعلقها في ساق من الخيزران يضعها فوق كتفيه.

جفَّت مياه البركة أخيرًا. وهبطت مياه البئر إلى مستوى منخفض، لدرجة أن أو-لان قالت له: «إذا كان لا بد للأولاد أن يشربوا، وللرجل العجوز أن يحصل على مائه الساخن، وجب أن يجف الزرع.»

فأجاب وانج لنج بغضب تحوَّل إلى نحيب: «هذا صحيح. ويجب أن يموتوا كلهم جوعًا إذا ماتت الزروع من العطش.»

لم يُنبت أي حقل محصولًا، عدا قطعة الأرض المجاورة للخندق. وكان هذا لأن وانج لنج ترك جميع حقوله الأخرى، وقضى كل يومه في هذه القطعة وحدها، يغرف الماء من الخندق ويصبه فوق التربة النهمة. ولأول مرة باع حبوبه في هذه السنة بمجرد حصادها. وما إن أحس بالفضة في كفه، حتى أطبقها عليها بشدة، وأسرع إلى بيت هوانج حيث قابل وكيل الأراضي، وقال له من فوره: «إن معي ما أشتري به الأرض المجاورة لأرضي بجانب الخندق.»

تمسَّك الوكيل بذلك العرض، ومرت النقود من شخص إلى آخر، ووقَّع على عقد التمليك، وأصبحت تلك الأرض ملك وانج لنج.

أصبح وانج لنج الآن يملك حقلًا واسعًا من الأرض الطيبة، إذ كان الحقل الجديد ضعف مساحة الحقل الأول. وما كان يهمه أكثر من التربة الخصبة الدكناء نفسها، هو أن هذا الحقل كان ذات مرة مِلكًا لأسرة أمير. ولم يخبر أحدًا، في هذه المرة، بما فعله.

مرَّت الشهور واحدًا إثر آخر، ولم تنزل أية أمطار بعد. وعندما اقترب الخريف، تجمعت في السماء سُحب صغيرة خفيفة.

بَيْد أنه قبل أن تتجمع سحابة كبيرة تبشر بالمطر، هبت ريح عاصفة من الشمال الغربي، آتية من الصحراء البعيدة، فأزاحت الغيوم من السماء.

حصد وانج لنج من حقوله محصولًا ضئيلًا من الفول. أما حقل القمح الذي زرعه عندما اصفرَّت أحواض الأرز وماتت، فجمع منها بضع سنيبلات قصيرة، بها بعض شتات من الحبوب هناك وهنا. وفصل حبوب الذرة عن مُطُرها في أرض الحجرة الوسطى، ولما وضع المُطُر الخالية من الحبوب (القوالح) جانبًا لكي تُستعمل وقودًا، قالت زوجته: «كلا، لا تستهلك هذه في الحريق؛ فإنني أتذكر عندما كنت طفلة وجاءت سنون قحط كهذه، أن الناس كانوا يطحنون مُطُر الذرة الخالية من الحبوب ويأكلونها.»

ما إن قالت هذا حتى صمت الجميع، حتى الأطفال. كانت هناك نُذُر بالقحط في هذه الأيام الصحوة الغريبة، عندما تخلت عنهم الأرض.

ظل وانج لنج يُعنى بأمر ثوره أطول مدة مستطاعة. غير أنه أتى يوم لم يكن هناك غير قليل من الفول وكمية ضئيلة من الذرة، واستمر الثور يخور من الجوع، فقال الرجل العجوز: «سنأكل الثور بعد ذلك.»

عندئذٍ صاح وانج لنج معارضًا، لأن الثور كان رفيقه في الحقول، وكان يعرفه منذ أيام شبابه.

فقال الرجل العجوز: «هذا حسن. ولكن المسألة الآن هي: إما حياتك أو حياة الثور، وحياة أولادك أو حياة الثور. وإن في مقدور الإنسان أن يشتري ثورًا آخر بسهولة أكثر مما يستعيد حياته.»

ومع ذلك فلم يذبح وانج لنج الثور في ذلك اليوم، ومَر اليوم الثاني، والثالث .. وبكى الأطفال طالبين الطعام. فرأى أخيرًا أن لا بد مما ليس منه بد، فقال بخشونة: «إذن، فليُذبَح. ولكني لا أستطيع أن أذبحه.»

زحفت أو-لان فذبحت الثور، بأن قطعت جرحًا كبيرًا في عنقه. ولم يقترب منها وانج لنج حتى انتهى كل شيء، وطُبِخ اللحم، ووُضِع على المائدة. غير أنه لما حاول أن يأكل من

لحم ثوره، لم يستطع ابتلاعه. فشرب قليلًا من المرق ليس غير. فقالت له أو-لان: «ما الثور إلا ثور. وقد شاخ ذلك الثور. تناول من لحمه، فسيأتي يوم تحصل فيه على ثور آخر، وسيكون خيرًا من هذا.»

سرَّى هذا الكلام عن وانج لنج قليلًا، فأكل قطعة من اللحم، ثم أخرى، وغيرها. كما أكل منه الجميع.

كانت القرية كلها في أول الأمر، حانقة على وانج لنج، إذ كانوا يظنون أنه يخبئ نقودًا فضية، وأن لديه مخزونًا كبيرًا من الطعام. وامتلأت قلوب القرويين حقدًا بتأثير الجوع. فما إن همس عم وانج لنج، يقول: «هناك فرد لديه طعام ...» حتى أمسك الرجال بالهراوات وذهبوا ذات ليلة إلى بيت وانج لنج وشرعوا يطرقون الباب. فلما فتحه تلبية لصوت جيرانه، دفعوه بعيدًا من طريقهم، وهجموا على كل ركن بحثًا عن موضع يُخبِّئ فيه طعامه. ولما وجدوا مخزونه الحقير من قليل من الفول المجفف، وملء قدح من الذرة المجففة، أطلقوا صيحة معلنين خيبة أملهم ويأسهم. وأمسكوا مائدته ومقاعده والسرير الذي كان يرقد عليه الرجل العجوز يبكي ويرتجف من شدة الذعر.

عندئذٍ تقدمت إليهم أو-لان وخاطبتهم. فارتفع صوتها البسيط البطيء على صوت الرجال، صاحت قائلة: «لا تأخذوا هذه الأشياء؛ لم يحن وقت هذه بعد! لقد أخذتم كل ما لدينا من مواد غذائية. وإنكم لم تبيعوا من بيوتكم، موائدكم ولا مقاعدكم. اتركوا لنا أثاث دارنا. إنَّا لا نملك بذرة فول أو حبة من الذرة أكثر مما تملكون. كلا، بل إن لديكم الآن أكثر مما لدينا، لأنكم أخذتم كل ما عندنا. ستنزل السماء بكم ضربتها إن طمعتم في أكثر من هذا. سنخرج الآن سويًّا ونبحث عن الحشائش لنأكلها، ونقشر لحاء الأشجار، أنتم من أجل أطفالكم، ونحن من أجل أطفالنا.» فلما سمع الرجال حديثها خجلوا وتسللوا خارجين واحدًا تلو آخر، لأنهم لم يكونوا أشرارًا، وإنما دفعهم الجوع إلى الشر.

وقف وانج لنج في فناء داره، وقد أحس بالخوف لحظة، ثم سرى الاطمئنان في دمه كأنه النبيذ المهدئ، فقال في نفسه: «لن يستطيعوا أن يأخذوا الأرض مني. ولو كانت عندي الفضة لأخذوها. لا أزال أملك الأرض، وهي الآن ملكي.»

الباب التاسع

بينما كان وانج لنج جالسًا في مدخل بيته، قال لنفسه: إنه لا بد من عمل شيء، ما في ذلك شك؛ فلا يمكن أن يظلوا في هذا البيت الخالي ويموتوا. كان بذلك الجسم النحيل عزيمة على أن يعيش. وكان يشتد به الغضب أحيانًا، فيخرج ويهز ذراعيه نحو السماء البلهاء، التي تضيء فوق رأسه في زرقة وصفاء وبرودة، والخالية دائمًا من الغيوم.

لم يكن أحد من أسرة وانج لنج يبرح فراشه الآن إطلاقًا. فلا حاجة بهم إلى النهوض. وحل النوم المضطرب لفترة ما، محل الطعام، على الأقل. لقد جففوا مُطُر الذرة الخالية من الحبوب وأكلوها. وكان الناس في جميع أنحاء الريف يأكلون أية حشائش يعثرون عليها على التلال في فصل الشتاء. لم يكن هناك حيوان ما في أي مكان. وما كان الإنسان ليرى أي طفل يلعب في طرقات القرية. وعلى أكثر تقدير، كان ابنَا وانج لنج يحبوان إلى الباب ويجلسان في الشمس. أما الطفلة فلم تجلس وحدها قط، رغم أن موعد جلوسها قد فات منذ مدة طويلة، بل كانت ترقد ساعة بعد أخرى ملفوفة في غطاء قديم. وكانت أولًا تملأ البيت صراخًا وعويلًا، ولكنها اضطرت في النهاية إلى التزام الهدوء، تمص في ضعف أي شيء يوضع في فمها.

كان تَمَسُّك هذه الروح الصغيرة بالحياة، بطريقة ما، سببًا في كسب محبة والدها. فكان ينظر إليها أحيانًا، ويهمس في رقة، قائلًا: «أيتها البلهاء المسكينة .. يا هذه البلهاء الصغيرة المسكينة!» وذات مرة انفجر باكيًا عندما حاولت أن تبتسم ابتسامة ضعيفة. وبعد ذلك كان يرفعها أحيانًا ويضعها داخل معطفه الدافئ، ويجلس هكذا وهي تنظر خارجًا إلى الحقول الجافة المستوية.

أما الرجل العجوز، فلو كان هناك أي شيء يؤكل أعطيه، حتى إذا لم ينل الأطفال منه شيئًا. كان أكثر أفراد الأسرة بهجة. فقال ذات يوم في صوته العجوز المتهدج: «قابلتنا أيام أسوأ من هذه .. رأينا أيامًا أسوأ من هذه.»

ذات يوم جاء الجار تشنج، وكان نحيلًا جدًّا إلى أقل من شبح كائن بشري، إلى باب منزل وانج لنج، وقال هامسًا: «في المدينة يأكل الناس الكلاب، وفي جميع النواحي يأكلون الخيول وكل أنواع الطيور. أما نحن فأكلنا هنا الماشية التي كانت تحرث حقولنا، كما أكلنا الحشائش ولحاء الأشجار. فماذا يتبقى الآن كطعام؟»

هزَّ وانج لنج رأسه في يأس. وأحس فجأة بالخوف، فقال بصوت عالٍ: «سنترك هذا المكان. سنتجه شطر الجنوب!»

فنظر إليه جاره في صبر، وقال بحسرة: «إنك صغير السن. أنا أكبر منك سنًّا، وزوجتي عجوز، وليس لنا سوى ابنة واحدة. يمكننا أن نموت راضين!»

فقال وانج لنج: «إنك لأسعد مني حظًّا؛ فأنا أعول والدي العجوز، وهذه الأفواه الثلاثة الصغيرة.»

ثم بدا له فجأة أن ما قاله، هو عين الصواب، فنادى أو-لان، التي كانت ترقد على السرير يومًا بعد يوم دون أن تفتح فاها بكلمة، إذ لم يكن هناك طعام تطبخه على الموقد ولا وقود للفرن.

فقال لها: «تعالي، أيتها المرأة. سنرحل إلى الجنوب!»

نهضت أو-لان من فراشها في ضعف، مستندة إلى باب حجرتهم، وقالت: «أعظِمْ بهذا من عمل! فعلى الأقل يموت الإنسان وهو سائر.»

عندما أشرقت الشمس في صبيحة اليوم التالي، دون أن تتغير سماؤها الزرقاء، خُيِّل إلى وانج لنج أن التفكير في الرحيل عن داره ليس إلا أضغاث أحلام. فليس معه أية نقود، وحتى لو كان معه نقود لما أفادته إلا قليلًا في ذلك الوقت، إذ لم يكن هناك أية مواد غذائية يمكن أن يشتريها.

وبينما هو جالس في مدخل بيته بعد ذلك، رأى أناسًا آتين من بعيد وسط الحقول، رجالًا يُيَمِّمُون جهته. وعندما اقتربوا منه تبيَّن أن عمه أحدهم، ومعه ثلاثة رجال لم يعرفهم.

نظر وانج لنج إلى عمه. كان نحيلًا، هذا صحيح. ولكنه لم يكن جائعًا كما كان ينبغي أن يكون. فأحس وانج لنج بما بقي فيه من قوة بحقد عظيم ضد هذا الرجل، عمه، فتمتم، قائلًا: «كيف تسنى لك أن تأكل؟ كيف حصلت على الطعام؟» فرفع عمه يديه نحو السماء، وصاح: «أكلتُ! آه، لو رأيت منزلي! إن العصفور الصغير نفسه لا يجد حبة فتات يلتقطها فيه.»

فأعاد وانج لنج قوله ببرود: «إنك أكلت.»

فأجاب عمه: «لم أفكر في أحد سواك وفي والدك، الذي هو أخي. وها أنا ذا أبرهن لك على صدق قولي. لقد اقترضت بعض الطعام من هؤلاء الرجال الأخيار ساكني المدينة، واعدًا إياهم أن أساعدهم في شراء بعض من الأراضي المحيطة بقريتنا. وكان أول تفكيري في أرضك الطيبة.»

لم يتحرك وانج لنج .. ولكنه رأى أنهم من المدينة حقًّا. كان يلوح أنهم تناولوا طعامًا، فما زال الدم يجري في عروقهم. وفجأة اعتراه شعور بأنه يمقتهم. فنظر إليهم باكتئاب، ثم قال: «لن أبيع أرضي.»

خطا عمه إلى الأمام. وفي تلك اللحظة أقبل ابن وانج لنج الأصغر، يحبو عند المدخل على يديه ورجليه، فإذ لم يكن لدى الطفل في هذه الأيام إلا قوة بسيطة، عاد يحبو كما كان يفعل أيام رضاعه.

فصاح العم: «أهذا ابنك؟ أهذا هو الطفل الصغير السمين الذي رأيته في أيام الصيف؟»

تطلَّع الجميع إلى الطفل، وعندئذ تساقطت الدموع من عينَي وانج لنج، فأخذ يبكي في سكون، مع أنه لم يذرف دمعة واحدة طوال هذه المدة كلها.

وأخيرًا قال وانج لنج هامسًا: «كم تدفعون ثمنًا للأرض؟»

عندئذٍ تكلم أحد رجال المدينة، فقال:

«أي رجُلي المسكين! إكرامًا لخاطر ابنك الذي يموت جوعًا، سنعطيك ثمنًا أعلى مما يمكن الحصول عليه في هذه الأيام في أي مكان.» وسكت برهة، ثم قال: «سنعطيك مائة بنس ثمنًا للفدان!»

ضحك وانج لنج في أسًى، وصاح: «لماذا هذا؟ إنني أدفع قَدْر هذا الثمن عشرين ضعفًا عندما أشتري أرضًا!»

فقال رجل آخر من رجال المدينة: «هذا صحيح، ولكنه ليس كذلك عندما تشتريها من أناس يتضوَّرون جوعًا.»

نظر وانج لنج إلى ثلاثتهم. كان أولئك الرجال متأكدين من حالته! وماذا لا يفرط فيه المرء من أجل أطفاله الجياع ووالده العجوز؟ ... تبدل ضعفه غضبًا لم يعهده طول حياته من قبل، فقفز واقفًا، وصاح في الرجال: «لن أبيع أرضي إطلاقًا! سنبقى هنا، وسنموت فوق الأرض التي ولدتنا!»

كان يبكي بشدة، ثم انصرف عنه غضبه فجأة، ووقف يبكي ويرتعش.

وفجأة أقبلت أو-لان عند الباب، وتحدثت إليهم، فقالت: «أما الأرض فلن نبيعها، هذا أكيد، وإلا ما وجدنا شيئًا نقتات منه بعد عودتنا من الجنوب. غير أننا سنبيع المائدة

والسريرين والفراش والمقاعد الأربعة، وحتى القِدر الموضوعة فوق الموقد. ولكننا لن نبيع شوكات جمع الحشائش ولا الفأس ولا المحراث، ولا الأرض.»

تمتم الرجال ببعض كلمات فيما بينهم، ثم استدار أحدهم، وقال:

«إنها أشياء حقيرة ولا تصلح إلا وقودًا. وعلى أية حال، سنعطيكِ قطعتين من الفضة. فخذيها أو اتركيها.»

بعد ذلك أدار الرجل ظهره وهو يتكلم بازدراء، ولكن أو-لان أجابته في هدوء، قائلة: «إن هذا لأقل من قيمة سرير واحد. ولكن إذا كانت الفضة معكم، فعليَّ بها في سرعة، وخذوا الأشياء.»

وضع الرجال الفضة في يدها الممتدة، ودخلوا ثلاثتهم إلى البيت وحملوا الأشياء فيما بينهم. بيد أنهم عندما دخلوا حجرة الرجل العجوز، وقف عم وانج لنج خارجًا إذ لم يرغب في أن يبصر به أخوه الأكبر.

عندما انتهى كل شيء، قالت أو-لان لزوجها: «هيا بنا نرحل والقطعتان لا تزالان معنا، وقبل أن نضطر إلى بيع عوارض السقف، وبعدئذٍ لا نجد ثقبًا نأوي فيه عند عودتنا.»

فأجاب وانج لنج، متثاقلًا: «هيَّا بنا.»

أرسل وانج لنج بصره عبر الحقول إلى الهياكل الصغيرة للرجال الذين انصرفوا من عنده، وأخذ يتمتم مكررًا عدة مرات: «على الأقل، لا أزال أحتفظ بالأرض .. أحتفظ بالأرض!»

الباب العاشر

لم يكن هناك ما يفعلونه إلا أن يجذبوا الباب بشدة ويحكموا إقفاله. كانت جميع ملابسهم على أبدانهم. ووضعت أو-لان في يد كل طفل طبقًا من أطباق الأرز، وزوجًا من أعواد تناول الطعام. وهكذا خرجوا يسيرون وسط الحقول، موكبًا كئيبًا يتحرك ببطء. وكان يبدو أنهم لن يبلغوا سور المدينة قط.

ساروا في صمت، ومروا بالمعبد الصغير، وفي داخله الربان الصغيران لا يلاحظان شيئًا مما يمر بهما. وكان العرق يتصبب من وانج لنج بسبب ضعفه، رغم الريح الباردة اللاذعة.

وصلوا إلى سور المدينة في الوقت المناسب، وكانوا يستريحون بعد كل مسافة قصيرة. مروا بجوار باب البيت العظيم، ولكنه كان موصدًا تمامًا. وكان يرقد على درجات سلم الباب عدة أشباح من الرجال والنساء، ينظرون إلى الباب المقفل وهم يتضورون جوعًا. وعندما مر وانج لنج، صاح أحدهم: «لا يزال لدى أولئك الأغنياء أرز يأكلونه، وما فتئوا يصنعون النبيذ من الأرز الفائض من طعامهم، بينما نموت نحن جوعًا.»

غير أن وانج لنج لم يجب بشيء، بل ظل يسير مع أسرته في صمت متجهين صوب الجنوب.

كان الوقت قرب المساء عندما اجتازوا المدينة وبلغوا الطرف الجنوبي، ورأوا أناسًا كثيرين سائرين شطر الجنوب، فسأل وانج لنج واحدًا منهم كان بقربه: «إلى أين يذهب كل هؤلاء القوم؟»

فقال الرجل: «إننا أناس جائعون، وذاهبون لنركب «عربة النار» لتنقلنا إلى الجنوب. إنها تبدأ من أمام ذلك المنزل وبها عربات لأمثالنا بأجر يقل عن قطعة فضية صغيرة لكل شخص.»

عربات النار! كان وانج لنج قد سمع الناس فيما مضى يتحدثون عن هذه العربات المتصلة ببعضها بالسلاسل، والتي لا يجرها إنسان ولا حيوان، بل تجرها آلة تتنفس نارًا وماء، فاستدار مرتابًا إلى المرأة، وقال: «وهل سنركب نحن أيضًا عربة النار هذه؟»

نظر كل منهما إلى الآخر في لهفة وخوف. كانت أو-لان لا تزال تحمل الطفلة ورأسها تتدلى فوق ذراعها في منظر يوحي بالموت يخيم عليها، حتى إن وانج لنج نسي كل شيء آخر، وصاح يقول: «هل ماتت العبدة الصغيرة؟»

هزت أو-لان رأسها، وقالت: «لم تمت بعد. ولكنها ستموت في هذه الليلة، كما سنموت نحن جميعًا، إلا ...»

فقال وانج لنج بكل ما يمكن أن يوجد في صوته من بهجة: «هيا يا ولديَّ، وساعدَا جدَّكما؛ سنركب عربة النار ونجلس بينما نذهب جنوبًا.»

ما من أحد كان يعرف إن كان بوسعهم السير لو لم ينبعث من وسط الظلام صوت مرعد وعينان تنفثان النار، حتى إن كل فرد صاح وجرى. فتزاحموا مندفعين في ديجور الظلام وهم يصرخون، حتى بلغوا الباب الصغير المفتوح، ودخلوا حجرة أشبه بالصندوق. ثم تحرك القطار الذي كانوا يركبونه محدثًا صخبًا ودويًّا خلال الدجى، يحملهم في طريقه.

الباب الحادي عشر

دفع وانج لنج من القطعتين الفضيتين أجر السفر لمسافة مائة ميل، فردَّ إليه الضابط الذي أخذ فضته حفنة من البنسات البرنزية، فاشترى منها من أحد الباعة، أربعة أرغفة صغيرة من الخبز، وطبقًا من الأرز الطري للطفلة. فكان هذا أكثر مما حصلوا عليه من الطعام في أية مرة لعدة أيام. وعندما غدا الطعام في أفواههم تخلت عنهم شهيتهم، ولم يستطع الأولاد ابتلاع الخبز إلا بِحَثِّهم على ابتلاعه.

لم ينفق وانج لنج كل النقود البرنزية في الطعام، بل احتفظ بكل ما يمكنه الاحتفاظ به ليشتري حصيرًا يبني به حظيرة لهم عندما يصلون إلى الجنوب. وكان بعربة النار رجال ونساء اعتادوا الذهاب كل سنة إلى مدن الجنوب الغنية للعمل والتسول. وبهذا يدخرون ثمن الطعام. وكان وانج لنج يصغي إلى حديث أولئك الرجال، بعد أن تعوَّد على الدهشة وهو ينظر من خلال الشقوق إلى الأرض التي يمر بها القطار في طريقه.

فقال أحد الرجال: «يجب، أولًا، أن تشتري ست قطع من الحصير بسعر بنسين لكل قطعة.» وكان وانج لنج يصغي باهتمام إلى حديثه ..

فسأله وانج لنج: «ثم ماذا؟»

فقال الرجل: «بعد ذلك تربط الحصير بعضه ببعض، وتصنع منه كوخًا، ثم تخرج لتتسول.»

لم يسبق أن تسوَّل وانج لنج قط في حياته من أي إنسان. وكان يمقت فكرة التسول من الأغراب في الجنوب.

كرر سؤاله: «أيجب على المرء أن يتسوَّل؟»

فقال الرجل: «نعم، حقًّا. ولكنك لن تتسول إلا بعد أن تأكل. فلدى قوم الجنوب أولئك، كثير من الأرز، حتى إنه في مقدورك أن تذهب كل صباح إلى مطعم شعبي، وتأكل كفايتك من الأرز الأبيض نظير بنس واحد.»

بيد أن وانج لنج اكتأب لفكرة التسول. وسأل الرجل فجأة: «ألا يوجد عمل لساعدَي الرجل؟»

فقال الرجل: «نعم، عمل!» وبصق على الأرض: «يمكنك أن تجرَّ رجلًا غنيًّا في عربة ريكشا صفراء، إذا راقك. وتتصبب بدل العَرَق دمًا من الحر، ثم يتجمد العَرَق كطبقة من الثلج فوق جسمك عندما تقف تنتظر. أما أنا فأفضِّل التسول!» ثم أخذ يسب ويلعن حتى إن وانج لنج لم يسأله بعد ذلك شيئًا.

عندما بلغت بهم عربة النار وجهتهم، كان وانج لنج قد حزم أمره على خطة. فأجلس الرجل العجوز والأطفال بجانب حائط منزل رمادي، وذهب ليشتري الحصير.

عثر على دكان بائع الحصير، أخيرًا، عند طرف المدينة، فدفع له النقود، وحمل حزمة الحصير. فلما رجع إلى الموضع الذي ترك فيه أسرته، صاح الأولاد عندما أبصروه أمامهم. ولاحظ وانج لنج أن الذعر قد استبد بهم بسبب غرابة ذلك المكان عليهم. أما الرجل العجوز فكان وحده يشاهد كل شيء في سرور ودهشة، وتمتم إلى وانج لنج: «أترى سمنة هؤلاء الجنوبيين. إنهم يأكلون لحم الخنزير في كل يوم، ما في ذلك شك.»

ما من أحد من المارة نظر إلى وانج لنج وأسرته. فذهب هذا يبحث عن مكان يقيم فيه كوخه. كان هناك أكواخ أخرى صُنِعت من قبل تستند إلى الحائط القائم خلفهم. فنظر إلى تلك الأكواخ وشرع يُشكل حصيراته، على هذه الصورة وتلك. وفجأة قالت أو-لان:

«إن في مقدوري صنع الكوخ. أتذكَّره منذ طفولتي.»

وضعت الزوجة الطفلة على الأرض، وطفقت تجذب الحصير إلى هذا الجانب وذاك، وشكَّلت سقفًا مستديرًا يصل إلى الأرض. وكان عاليًا بما يكفي لأن يجلس تحته رجل فلا يصطدم رأسه بقمته. ووضعت حول حافات الحصير الملاصقة للأرض أحجارًا جمعتها من قِطعِ الآجُرِّ الملقاة على الأرض. فلما أتمت صنع الكوخ انتقلوا إلى داخله. وكانت قد احتفظت بحصيرة، ففرشتها على الأرض. وهكذا جلسوا وأووا داخل ذلك الكوخ.

إن جلوسهم هكذا، ينظر كل منهم إلى الآخر، لم يكن يبدو، في اليوم السابق، ممكنًا، يوم أن غادروا منزلهم وأرضهم التي تبعد عنهم الآن مسافة مائة ميل.

سرَّهم الشعور بوفرة الغذاء في هذه الأرض وسرعان ما وجدوا أن مطاعم الفقراء كانت في نهاية شارع قريب من كوخهم. ورأوا كثيرًا من الناس ذاهبين إليها يحملون أوعية ودلاء فارغة. وهكذا ذهب وانج لنج وأسرته مع هؤلاء الآخرين. فوصلوا إلى بناءين كبيرين من الحصير ازدحم كل شخص أمام طرفهما المفتوح.

كان بالجزء الخلفي من كل مبنى مواقد كبيرة من الطين عليها قدور كبيرة في اتساع البِرْكة. وعندما رُفِعَت أغطيتها الخشبية بان الأرز الأبيض الطيب تعلوه الفقاقيع وهو يغلي. فعندما شم أولئك القوم رائحة الأرز، تزاحموا في كتلة ضخمة، وصاح العمال الذين كشفوا القدور، يقولون: «لدينا ما يكفي كل رجل وكل فرد بدوره!»

بَيْد أنه ما من شيء استطاع وقف الكتلة الجائعة من الرجال والنساء. كانوا يناضلون كالوحوش حتى أكلوا جميعًا.

بعد ذلك خرجوا إلى الشارع ثانية، ووقفوا يأكلون أرزهم. فأكل وانج لنج حتى شبع، وبقي قليل من الأرز في الآنية، فقال: «سآخذ هذا معي إلى المنزل كي آكله في المساء.»

غير أن رجلًا من حراس ذلك المكان صاح فيه بعنف:

«كلا، لا يمكن أن تأخذ معك شيئًا سوى ما في داخلك. فهناك من يحضرون لشراء الأرز الذي يُعطاه الفقراء، ويحملوه إلى منازلهم ليطعموا به الخنازير.»

أصغى وانج لنج إلى هذا القول مدهوشًا، وصاح: «أيوجد أناس قساة القلوب إلى هذه الدرجة!» ثم قال: «ولكن لماذا يعطي الناس هكذا للفقراء، ومَن هم الذين يعطون ذلك الأرز؟»

عندئذٍ أجابه الرجل: «إنهم أغنياء المدينة الذين يفعلون هذا.»

فقال وانج لنج: «يا له من عمل صالح!» ثم عادوا إلى الكوخ الذي صنعوه. فناموا حتى الصباح التالي؛ إذ كانت هذه أول مرة يأكلون فيها ويشبعون منذ الصيف الماضي.

كان لا بد لهم من نقود في الصباح التالي. فنظر وانج لنج إلى أو-لان لا يدري ماذا يجب عليهم أن يفعلوه. فأجابت أو-لان كما لو كانت هذه هي الحياة التي عرفتها دائمًا: «أستطيع أن أتسوَّل أنا والطفلان، وكذلك الرجل العجوز.»

فنادت الولدين وقالت لهما: «ليمسك كلٌّ منكما طبقه هكذا، ويصيح هكذا.»

وأخذت هي طبقها الخاوي في يدها، ومدتها قائلة بلهجة تستدر العطف: «كن رحيم القلب، أيها السيد الطيب .. إنه عمل صالح لحياتك في السماء! إن النقود الصغيرة — القطعة البرنزية التي تدفعها — تطعم طفلًا يموت جوعًا!»

نظر إليها الولدان الصغيران، وكذلك وانج لنج. من أين تعلَّمَت أن تصيح هكذا؟ كم في هذه السيدة من أشياء لم يعرفها بعد؟ فأجابت على نظرته بقولها: «كنت أقول هكذا وأنا طفلة. وبهذا كنت أحصل على الطعام. إنه في سنةٍ كهذه أن باعني أهلي عبدةً.»

بعد ذلك استيقظ الشيخ الهَرِم، فأعطوه طبقًا، وخرج أربعتهم إلى الطريق ليتسولوا. فبدأت المرأة تصيح، وتهز طبقها لكل عابر في الطريق. وقليل منهم دفع إليها نقودًا صغيرة مُكرَهِين.

أما وانج لنج فذهب إلى الطرقات، ولما وجد المكان الذي تؤجر منه عربات الريكشا، دخله واستأجر عربة لمدة يوم بأجر نصف قطعة فضية يُدفَع في الليل.

جَرَّ وانج لنج خلفه العربة الخشبية ذات العجلتين لأول مرة في حياته، وقلَّما كان يستطيع السير. فاتجه إلى شارع جانبي ضيق، وأخذ يسير فيه جيئة وذهابًا لفترة من الوقت. وما إن فكَّر في نفسه أنه خير له أن يتسول، حتى فُتِحَ باب وخرج منه رجل عجوز وناداه.

قال له: «أوصلني إلى معبد كونفوشيوس» ثم اعتدل في جلسته هادئًا. فسار وانج لنج كما رأى غيره يفعلون، رغم أنه لم يعرف مكان معبد كونفوشيوس.

كان وانج لنج يسأل عن ذلك المعبد وهو سائر. وكان يسير بأسرع ما يمكنه.

عندما بلغ وانج لنج أبواب المعبد، نزل الرجل العجوز من العربة، وأخرج قطعة نقود فضية صغيرة، وأعطاها وانج لنج قائلًا: «لن أدفع أكثر من هذه، ولا فائدة من الشكوى.»

لم يكن وانج لنج يفكر في الشكوى إطلاقًا، إذ لم يرَ هذه النقود من قبل، ولا يعرف كم بنسًا تساوي. فذهب إلى حانوت أرز قريب، حيث كانت تُستبدَل النقود، فأعطاه الصراف ستة وعشرين بنسًا. فدهش للسهولة التي تأتي بها النقود في الجنوب. بيد أن سائق ريكشا آخر وقف بجانبه ونظر إليه وهو يعد النقود، وقال له: «ستة وعشرون فقط؟! من أي مكان نقلتَ هذا الرأس العجوز؟» فلما أخبره وانج لنج، صاح: «يا له من رجل عجوز قاسي القلب! لقد أعطاك نصف الأجر الصحيح. علامَ اتفقتَ في البدء؟»

فقال وانج لنج: «لم أتفق على شيء .. قال لي تعالَ، فذهبت إليه.»

فصاح الرجل ليسمعه الناس الواقفون بقربه: «إنك ريفي أبله، يا ذا الضفيرة الطويلة. اعرف أيها الغبي أن الأجانب البيض وحدهم، هم الذين يؤخذون بغير مساومة! إنهم أغبياء ويُخرِجون فضتهم من جيوبهم كالماء.» فضحك كل مَن سمع ذلك الكلام.

لم يقل وانج لنج شيئًا. كان يحس بأنه وضيع جدًّا وجاهل وسط ذلك الحشد من أهل المدينة.

قال لنفسه: «ورغم ذلك، فإن هذه النقود تطعم أطفالي غدًا.» ثم تذكَّر أن عليه أن يدفع إيجار العربة في تلك الليلة.

نقل وانج لنج راكبًا آخر في فترة الصباح، وقد ساومه في هذه المرة، واتفق معه على أجر معين. وبعد الظهر ناداه راكبان آخران. بَيْد أنه عندما عَدَّ كل نقوده ليلًا، وجد أنه لا يفيض له سوى بنس واحد زيادة على إيجار العربة. فعاد إلى كوخه يطفح كآبة.

عندما دخل الكوخ، وجد أن أو-لان جمعت أربعين قطعة صغيرة من التسول، قيمتها كلها أقل من خمسة بنسات. أما الأولاد، فقد جمع الولد الأكبر ثماني قطع صغيرة، والولد الأصغر ثلاث عشرة قطعة. فيكون مجموع ما ربحوه في يومهم هذا، كافيًا لثمن أرز الصباح. ولكن الولد الأصغر اعتزَّ بالنقود التي جمعها من تسوله، ولم يستطيعوا أن يأخذوها منه، حتى دفعها هو بنفسه ثمن أرزه.

أما الرجل العجوز فلم يحصل على شيء إطلاقًا. ظل جالسًا طول النهار بجانب الطريق، ولكنه لم يتسول. ولما كان من الجيل القديم فلم يمكن لومه.

الباب الثاني عشر

هكذا كان وانج لنج وزوجته وأطفاله كالأجانب في هذه المدينة الجنوبية. حقيقة كان الناس السائرون في الشوارع ذوي شعر أسود كشعر وانج لنج وكل أفراد أسرته. وحقيقة أنه إذا أصغى المرء إلى لغة أولئك الجنوبيين أمكنه فهمها، ولو بصعوبة.

بيد أن القرية الصغيرة المكونة من الأكواخ المستندة إلى الحائط، لم تصبح قط جزءًا من المدينة أو من الضواحي الممتدة بعدها. وذات مرة عندما سمع وانج لنج شابًّا يصيح في حشد من الناس، ويقول أنه يجب أن تحدث ثورة في الصين، ويجب أن تقوم الصين ضد الأجانب المقوتين، ذعر وتسلل بعيدًا، لأنه أحس بأنه من الأجانب الذين يتحدث عنهم ذلك الشاب.

كان وانج لنج، ذات يوم، في أحد شوارع سوق الحرير يبحث عن راكب، فعلم يومئذ فقط أنه يوجد مَن هم أجانب أكثر منه في هذه المدينة. وبينما كان مارًّا في ذلك اليوم أمام باب حانوت، إذ خرج فجأة من باب ذلك الحانوت مخلوق لم يرَ شبهه من قبل. لم يعرف وانج لنج ما إذا كان هذا المخلوق ذكرًا أم أنثى. ولكنه كان فارع الطول، يرتدي ثوبًا أسود من منسوج خشن، ويضع حول عنقه جلد حيوان ميت. وعندما مر أمام الباب، ناداه ذلك الشخص ثم أخبره بلغة سقيمة أن يذهب به إلى شارع القناطر. فانطلق وانج لنج يجري بسرعة. وفي أثناء سيره نادى سائقًا آخر، كان قد عرفه أثناء عمله، وقال له: «انظر إلى هذا .. ما هذا الذي أجره في عربتي؟»

فصاح الرجل خلفه، وقال: «أجنبية .. إنها سيدة من أمريكا .. إنك غني ...»

كان وانج لنج يجري بأسرع ما في مكنته خوفًا من المخلوق الغريب الجالس خلفه.

نزلت السيدة من العربة، وقالت بنفس اللغة السقيمة: «ما كان هناك داعٍ لأن تتعب نفسك بالإسراع حتى تموت»، وتركته بعد أن وضعت في كفه قطعتين من الفضة. وكان هذا ضِعف الأجر المعتاد.

عندئذٍ عرف وانج لنج أن هذه السيدة حقيقة أجنبية، وأن جميع الناس ذوي الشعور السوداء والعيون السوداء من جنس، وذوي الشعور الزاهية والعيون الزاهية من جنس آخر.

رجع وانج لنج إلى كوخه، ذات ليلة، متأخرًا، فوجد في الكرنب المطبوخ قطعة كبيرة مستديرة من لحم الخنزير. كانت هذه أول مرة يحصلون فيها على اللحم منذ أن ذبحوا ثورهم. فتفتحت عيناه، وقال لزوجته: «لا بد أنك أخذت صدقة من أجنبي اليوم!» ولكنها لم تجبه بشيء، غير أن الطفل الصغير امتلأ زهوًا وقال: «أنا الذي أخذتها. إنها قطعتي، قطعة اللحم هذه. فعندما أدار القصَّاب وجهه إلى الناحية الأخرى، خطفتُها.»

فصاح وانج لنج في غضب: «إذن فلن آكل من هذا اللحم! قد نكون شحاذين، ولكننا لسنا لصوصًا.» وأخرج قطعة اللحم من القِدر وألقى بها على الأرض.

عندئذٍ جاءت أو-لان والتقطت قطعة اللحم من على الأرض، وغسلتها ثم وضعتها ثانية في القِدر التي يغلي بداخلها الطعام، وقالت في هدوء: «اللحم لحم.»

لم يُجب وانج لنج بشيء، بل قال في نفسه: «لا بد من أن نعود إلى أرضنا.»

الباب الثالث عشر

رغم ثراء هذه المدينة، كان يعيش وانج لنج، يومًا بعد يوم، في أسس الفقر التي وُضِع عليها. وبينما كان الطعام يتدفق من الحوانيت، والأغنياء يلبسون الديباج والمخمل (القطيفة)، لم يكن في المنطقة التي يعيش فيها وانج لنج غذاء يكفي لإطعام جائع، ولا ملابس تكفي لستر العظام.

رضي المسنون من الرجال والنساء بالحياة التي يحيونها. بيد أن الشبان كانوا يتحدثون فيما بينهم حديثًا ينم عن التذمر. وذات ليلة، أرهف سمعه لمثل ذلك الحديث، فإذا به يسمع لأول مرة بما يدور خلف الحائط العظيم الذي تستند إليه أكواخهم.

كان في إحدى أمسيات يوم من أواخر الشتاء، أن لاح أن الربيع قد يعود ثانية. كان بالجو رطوبة طفيفة في تلك الليلة أقضَّت مضجع وانج لنج، فتحرك في نفسه حنين بالغ إلى حقوله.

فقال لوالده: «في يوم كهذا يجب تقليب تربة الحقول وبَذْر القمح.»

فقال الشيخ العجوز: «نعم ... أعلم ما يدور بخلدك. مرتين، ومرتين في حياتي، اضطررت إلى أن أفعل ما فعلناه هذا العام.»

«ولكنك كنت تعود ثانية، يا أبتاه!»

فقال الأب ببساطة: «كانت هناك الأرض، يا ولدي.»

فقال وانج لنج في نفسه: «حسنًا. إذن فسيرجعون هم أيضًا، إن لم يكن في هذا العام، ففي العام القادم.» ثم قال لزوجته في خشونة: «لو كان لدي شيء أبيعه لبعته لأعود ثانية إلى الأرض.»

كانت أو-لان تغسل أطباق الأرز بقليل من الماء، فنظرت إليه من المكان الذي كانت جالسة فيه.

قالت في تؤدة: «لا شيء يمكن بيعه غير الطفلة.»

فتوقف وانج لنج عن التنفس، وقال بصوت عالٍ: «كلا، لن أبيع طفلًا!»

فأجابت ببطء: «لقد باعني أهلي. باعوني لبيت عظيم حتى يستطيعوا العودة إلى بيتهم.»

– «وهل تبيعين الطفلة، إذن؟»

– «إن كان الأمر من أجلي وحدي لقتلتها قبل بيعها. ولكني أبيع هذه الطفلة من أجلك أنت؛ لأرجع بك إلى الأرض.»

فقال وانج لنج: «كلا، لن أبيعها حتى إذا قضيت حياتي كلها في هذه البرية.»

بَيْد أن الفكرة عاودته بالرغم منه. فنظر إلى الطفلة الصغيرة التي كانت مع جدها. وكما فعلت هذه الطفلة من قبل، ما إن نظر إليها حتى ابتسمت.

فقال في نفسه: «كنت أبيعها إذا لم تبتسم هكذا.»

بعد ذلك أخذ يفكر في أرضه، وصاح بحرقة: «هلا أراها ثانية! فمع كل هذا العمل والتسول، لا نحصل على أكثر من غذائنا.»

فأجابه صوت من وسط الظلام يقول: «لستَ أنت الوحيد الذي هذا شأنه. يوجد مائة مائة من أمثالك بالمدينة.»

جاء الرجل يدخن غليونًا من الخيزران. وكان هو رب الأسرة التي تسكن بعيدًا عن كوخ وانج لنج بكوخين.

فسأله وانج لنج بمرارة: «وهل ستظل الحال هكذا إلى ما شاء الله؟»

أخذ الرجل يدخن من غليونه، وبصق على الأرض، ثم قال: «كلا، ليس إلى ما شاء الله. هناك طرق عندما يكون الأغنياء أغنياء جدًّا، كما أن هناك طرقًا عندما يكون الفقراء فقراء جدًّا. لقد بعنا بنتين في الشتاء الماضي. واحتفظت بعبدة واحدة، هي الأولى. لأن بيع الأُخريات خير من قتلهن. هذه هي إحدى الطرق عندما يكون الفقراء فقراء جدًّا. أما إذا كان الأغنياء أغنياء جدًّا، فهناك طريقة. وإذا لم أكن مخطئًا، فإن هذه الطريقة ستأتي سريعًا.» ثم أشار إلى الحائط القائم خلفهم، وقال: «هل رأيت داخل هذا الحائط؟»

هز وانج لنج رأسه، ونظر إليه. فاستمر الرجل يقول: «أخذت إليه إحدى إمائي لأبيعها هناك، فرأيت داخله. لن تصدقني إذا أخبرتك عن كميات النقود التي تجيء وتذهب كل يوم في ذلك المنزل. فحتى الإماء يلبسن أقراطًا من اليشم واللؤلؤ في آذانهن.»

أصغى وانج لنج وفمه مفتوح. إذن فوراء ذلك الحائط مثل هذه الأشياء!

فقال الرجل: «هناك طريقة عندما يكون الناس أغنياء جدًّا.» وكما لو كان لم يتفوَّه بشيء، أضاف قائلًا: «حسنًا، سأذهب ثانية إلى العمل.» ثم انصرف وسط الظلام لأنه كان ينام النهار كله ويعمل بالليل.

لم ينم وانج لنج بسبب تفكيره في الذهب والفضة واللآلئ الموجودة في الجانب الآخر من هذا الحائط، فقال في نفسه: «من الخير أن أبيع الطفلة لبيت غني حتى يمكنها أن تأكل جيدًا وتلبس الجواهر.» ثم عاد يفكر على الرغم منه، وقال في نفسه: «هل أبيع الطفلة لنموت جوعًا هناك بدلًا من هنا؟ ليس لدينا حتى الحَب الذي نبذر به الأرض.»

لم يعرف وانج لنج شيئًا عن الطريقة التي تحدَّث عنها الرجل عندما قال: «هناك طريقة عندما يكون الأغنياء أغنياء جدًّا.»

الباب الرابع عشر

أقبل الربيع على قرية الأكواخ. فكنتَ ترى حشدًا من النساء والأطفال المهلهلي الملابس يخرجون كل يوم من الأكواخ بحثًا عن الطعام في الحقول المجاورة والطرقات. وكانت أو-لان تخرج كل يوم هي وأولادها مع ذلك الحشد.

أما الرجال فكان عليهم أن يعملوا. وكان وانج لنج يشتغل كما كان يفعل من قبل. كانوا يشتغلون في الشتاء وهم صامتون، وفي صمت يأكلون الطعام الذي يهيئه لهم عملهم وتسوُّلهم. ثم ينامون في سبات عميق.

شرع الحديث يخرج من شفاههم عندما قدم الربيع. كان هؤلاء الرجال يتحدثون دائمًا عن النقود. وأخيرًا، كانوا يتحدثون دائمًا عما يفعلونه لو حصلوا على أموال الرجل القاطن وراء ذلك الحائط.

كان وانج لنج يصغي إلى ذلك الحديث فلا يسمع منهم إلا ما سيأكلونه، وكيف سيكون نومهم. وفوق كل شيء عن أنهم لن يشتغلوا بعد ذلك ثانية، كما يفعل ذلك الرجل الغني الساكن خلف الحائط، والذي لم يشتغل في حياته إطلاقًا.

صاح وانج لنج بغتة، يقول: «لو حصلت على الذهب والفضة، لاشتريت بهما أرضًا. أرضًا طيبة، وأنتج محاصيل طيبة من الأرض!»

عند ذلك انقلب عليه الجميع ساخرين. ولكن هذا لم يُثْنِ وانج لنج عن عزمه، وجعله أكثر قلقًا، كل يوم، على الأرض التي كان يملكها.

لما كان وانج لنج يفكر دائمًا في أرضه، فإنه كان يرى الأحداث التي تمر به في المدينة يوميًّا، وكأنه في حلم. فمثلًا كان يرى الناس يوزعون أوراقًا في كل مكان، ولقد حصل مرتين على مثل هذه الأوراق.

حمل وانج لنج الورقة، أول مرة، وعاد بها إلى الكوخ ليلًا، وأطلع الرجل العجوز عليها. ولكن هذا أيضًا لم يعرف القراءة. وبعد بضعة أيام، نُسِيَت هذه الورقة، فأخذتها أو-لان، وخاطتها في نعل حذاء مع أوراق أخرى جمعتها من هنا ومن هناك، لكي تجعل نعل الحذاء صلبًا.

أما في المرة الثانية، فجاء شاب حسن البزة، من رجال المدينة، وأعطى وانج لنج ورقة عليها صورة رجل ميت أصفر البشرة نحيل الجسم، يرتدي أسمالًا زرقاء بالية. ووقف رجل ضخم بدين الجسم فوق الرجل الميت، يحمل في يده سكينًا طويلة. فنظر وانج لنج إلى الصورة وتاق إلى معرفة معنى الحروف المكتوبة تحتها. فالتفت إلى الرجل الواقف بجواره وقال له: «أتعرف حرفًا أو حرفين فتخبرني عن معنى هذه الصورة المخيفة؟»

فقال الرجل: «الزم السكون، وأصغِ إلى المعلم الشاب، سيشرح لنا كل شيء.»

وهكذا أصغى وانج لنج؟ فسمع ما لم يسمعه من قبل إطلاقًا.

صاح المعلم الصغير، يقول: «إن هذا الرجل الميت هو أنتم. والذي يقتلكم هو الرجل الغني.»

علا صياح مَن كانوا يسمعون. ولكن وانج لنج رجع أدراجه غير مقتنع. ومع ذلك فقد أخذ الأوراق من الشاب، لأنه تذكر أن ليس لدى أو-لان ورق يكفي لنعال الأحذية. فلما عاد إلى الكوخ، أعطاها تلك الأوراق.

زيادة على التذمر من الربيع، كان هناك التذمر الجديد الذي ينشره ذلك الشاب وأمثاله، بين سكان الأكواخ.

على الرغم من أن وانج لنج قد رأى ذلك، وأحس بغضب الجمهور، فلم يرغب في شيء إلا أن يرى أرضه تحت قدميه ثانية.

رأى وانج لنج شيئًا آخر، في هذه المدينة، لم يفهم له معنى. فقد أبصر، ذات يوم، وهو يبحث عن زبون، ثلةً من الجنود المسلحين يقبضون على رجل. وبينما كان يشاهد ذلك مدهوشًا، رآهم يقبضون على رجل آخر، وعلى ثالث.

بعد ذلك وجد وانج لنج أن أولئك الناس كانوا مثله لا يعرفون سببًا للقبض عليهم. فدفع عربته إلى حارة جانبية، ودخل حمَّامًا عامًّا واختبأ فيه حتى مَرَّ الجنود، ثم سأل صاحب الحمَّام عن معنى ما رآه. فأجابه الرجل العجوز بعدم اهتمام: «ليس معنى هذا سوى نشوب حرب في مكان ما. هؤلاء الجنود ذاهبون إلى ميدان القتال بناحية ما. إنهم يجبرون العمال أمثالك على حمل أمتعتهم وبنادقهم.»

فسأله وانج لنج وهو يلهث: «وماذا بعد ذلك؟ أي أجر ..؟ أية فائدة ..؟»

كان الرجل المسن عجوزًا جدًّا، فأجاب بعدم اكتراث، قائلًا:

«لا أجر سوى لقمتين من الخبز الجاف في اليوم، ويجدر بك أن تعود إلى بيتك إذا استطاعت ساقاك أن تحملاك.»

فقال وانج لنج مذعورًا: «حسنًا، ولكن عائلة المرء ...»

قال الرجل الهَرِم: «وماذا يعرف الجنود عن هذه، أو لِمَ يهتمون بها؟» ومع ذلك، فقد كان هذا الرجل طيب القلب، ورأى الجنود عائدين مرة أخرى، يفتشون الشوارع فقال يخاطب وانج لنج: «انحَنِ أكثر من هذا، فإنهم عائدون.»

انحنى وانج لنج، ومَرَّ الجنود في الطريق، متجهين غربًا. وعندما انقطع صوت أحذيتهم، خرج من مكمنه، وأمسك عربته وجرى بها خاوية إلى الكوخ.

كانت أو-لان قد عادت من فورها من الطريق لتطبخ قليلًا من الخضراوات التي جمعتها. فأخبرها وانج لنج بما حدث، وكيف استطاع الإفلات ولَمَّا يكد. ثم قال: «أحقيقة أني مضطر إلى بيع العبدة الصغيرة، والذهاب شمالًا إلى الأرض؟»

غير أنها بعد أن سمعت قصته، قالت بلهجتها البسيطة الثابتة: «انتظر بضعة أيام؛ فإن حديثًا غريبًا يدور حولنا.»

رغم هذا، لم يخرج وانج لنج إطلاقًا في ضوء النهار، بل كان ينتظر حتى ينشر الظلام غلالته الدكناء على الكون، فينصرف إلى المتاجر. وبنصف ما كان يكسبه من قبل، يجر طول الليل عربات ضخمة محملة بالصناديق. كل عربة يجرها ويدفعها اثنا عشر رجلًا، وهم يئنون.

كان وانج لنج يجر العربات في الشوارع طول الليل، ثم يرجع إلى منزله عند الفجر منهوك القوى لا يكاد يقوى على التنفس، فيتناول طعامه وينام. أما في وضح النهار، فبينما يفتش الجنود الشوارع، كان ينام آمنًا في أقصى ركن من الكوخ.

كان وانج لنج يسمع، وهو مختبئ في كوخه، وقع أقدام الجنود، ساعة بعد ساعة، وهم سائرون إلى القتال. لم يكن أحد يتحدث إلى غيره في هذه الأيام. إذ كانت المدينة ترتجف رعبًا. وكان كل رجل يعمل بسرعة ما يجب عليه فعله ثم يعود إلى بيته ويقفل بابه.

كان الهمس يدور في كل مكان بأن العدو على الأبواب. ففزع كل مَن كان يملك شيئًا. أما وانج لنج فلم يعتَوِره أي خوف، وكذلك لم يخف أي فرد من ساكني الأكواخ. فإذا كان العدو على الأبواب فليدخل، فلن تصبح الحال أسوأ مما هم عليها الآن.

بعد ذلك أخبر مديرو المتاجر عمالَ النقل بأن لا حاجة بهم إلى أن يعودوا ثانية، إذ لم يكن هناك مَن يشتري ويبيع في تلك الأيام.

وعلى هذا بقي وانج لنج في كوخه ليل نهار دون القيام بعمل ما. فاغتبط لهذا في أول الأمر، إذ كان يبدو أن جسمه لم يكن يحظى بالراحة الكافية. غير أنه إذا بقي بغير عمل فإنه لا يكسب عيشه، وبعد بضعة أيام نفد ما ادخره من بنسات قلائل، وأخذ يفكر في يأسٍ ماذا يفعل. وكأنما لم تبلغ الحال درجة كافية من السوء في ذلك الوقت، فإذا بالمطاعم الشعبية تغلق أبوابها. فلم يعدْ هناك طعام ولا عمل ولا عابر طريق يمكن مدُّ اليد إليه بالسؤال.

أخذ وانج لنج ابنته بين ذراعيه، ونظر إليها ثم قال بعطف: «أيتها البلهاء الصغيرة، أتودين الذهاب إلى بيت عظيم حيث تنعمين بالطعام والشراب. وتنالين معطفًا كاملًا يكسو جسمك؟»

فابتسمت الطفلة وهي لا تفهم شيئًا مما قال. ومدت إليه يدها الصغيرة لتلمسه، فلم يحتملها، وصاح يقول لامرأته: «أخبريني، هل كنت تُضرَبين في ذلك البيت العظيم؟»

فأجابته في صراحة وبلاهة: «كنت أُضرَب كل يوم بسوط من الجلد معلق على حائط المطبخ.»

بينما كان وانج لنج جالسًا هكذا إذ سمع فجأة صوتًا أشبه بقصف الرعد في السماء، فارتمى كل واحد منهم على الأرض، وأخفى وجهه. وغطى وانج لنج وجه الطفلة بيده، وصرخ الولدان رعبًا.

وعندما عاد السكون، رفعت أو-لان رأسها وقالت: «لقد حدث ما سمعت عنه. لقد اقتحم العدو أبواب المدينة.» وقبل أن يردَّ عليها أحد بشيء، ارتفعت صيحة خلال المدينة. خافتة أولًا ثم تجمعت في صراخ أخذ يعلو شيئًا فشيئًا حتى ملأ الشوارع.

عندئذٍ جلس وانج لنج. وطفق كل منهم يحملق في الآخر، انتظارًا لشيء لم يعرفوه. ثم سمعوا، من جهة الحائط القريب منهم، صوت باب ضخم يصرُّ وهو يُفتح عنوةً. وفجأة أطل الرجل الذي تحدَّث إلى وانج لنج ذات مرة في الظلام، برأسه في مدخل الكوخ وصاح قائلًا: «ألا تزالون جالسين هنا حتى الآن؟ لقد جاءت الساعة .. انفتحت لنا أبواب الرجل الغني!» وكما لو كان بفعل السحر، اختفت أو-لان، متسللة من تحت ذراع الرجل وهو يتكلم.

نهض وانج لنج متثاقلًا، ووضع الطفلة على الأرض، وخرج إلى بيت الرجل الثري. فُتِحَت الأبواب الضخمة، واندفع الناس خلالها في زحام شديد، حتى إنهم كانوا يتحركون

ككتلة واحدة. وأسرع آخرون من الخلف، وأمسكوا وانج لنج ودفعوه أمامهم وسط الزحام، سواء أرَغِب في ذلك أم لم يرغب.

فظل يُدفَع من بهو إلى آخر، ولم يرَ أحدًا من الرجال أو النساء الذين كانوا يعيشون في ذلك البيت. بل رأى الطعام فوق الموائد في الحجرات، والنار موقدة في المطابخ. كان ذلك الحشد على علم بأبهاء الأغنياء، لأنهم مروا على كل شيء في الأبهاء الداخلية حيث كانت الأَسِرَّة الفاخرة للُّوردات وسيداتهم، وصناديق الملابس الحريرية والكنوز. فانهالت جموع الناس على هذه يخطفون كل شيء، ولا يقف أحدهم ليرى ما أخذه.

أما وانج لنج، فهو وحده الذي لم يأخذ شيئًا وسط تلك الفوضى. لم يحدث في حياته كلها أن أخذ قط شيئًا يملكه غيره. ولم يستطع أن ينهب من فوره. وعلى هذا وقف أولًا وسط الجموع، ثم أفاق لنفسه واندفع إلى جانب، فألفى نفسه في نهاية آخر بهو كانت تقيم فيه سيدات الأغنياء. كان الباب الخلفي مفتوحًا، ولا شك أن جميع السكان قد هربوا في ذلك اليوم من هذا الباب. بَيْد أن رجلًا واحدًا لم يتمكن من الهرب. فالتقى به وانج لنج فجأة في حجرة داخلية خاوية.

كان ذلك الرجل بالغ السمنة، ليس بالعجوز ولا بالشاب. فما إن أبصر وانج لنج حتى ارتعد فرائصه وسقط على ركبتيه وصاح: «أبقِ عليَّ حياتي .. ولا تقتلني. عندي أموال لك .. أموال كثيرة!»

كانت كلمة «أموال» هذه هي التي نفذت بوضوح إلى ذهن وانج لنج كأنما هناك صوت يقول: «أموال .. إذن فالطفلة قد نجت .. والأرض!»

فصاح عندئذٍ بصوت لم يعهده في صدره من قبل، وقال: «عليَّ، إذن، بالأموال!»

أخرج الرجل البدين يديه الصفراوين من جيب ثوبه وهو يبكي، يتدفق منهما الذهب. فبسط وانج لنج طرف سترته وتلقى فيه النضار. ثم صاح ثانية بصوته الغريب، الذي كان أشبه صوت رجل غيره، وقال: «زدني من هذا!»

ومرة ثانية خرجت يدَا الرجل يتدفق منهما العسجد، وصاح قائلًا: «لم يبقَ معي شيء الآن. ليس عندي غير حياتي الحقيرة.» ثم طفق يبكي.

نظر إليه وانج لنج وهو يرتعش ويبكي، واشمأز منه فجأة أكثر من اشمئزازه من أي شيء آخر في حياته كلها، فصاح فيه، يقول:

«اغرُب من أمام وجهي، وإلا قتلتك كما لو كنتَ دودة سمينة!»

هكذا صاح وانج لنج رغم أنه كان رقيق القلب لدرجة أنه لم يقوَ على قتل ثور. فجرى الرجل من أمامه واختفى.

بعد ذلك وضع وانج لنج الذهب في صدره وخرج من الباب المفتوح، واجتاز الشوارع الخلفية حتى بلغ كوخه. وأخذ يكرر في نفسه: «نعود إلى الأرض .. غدًا نعود إلى الأرض.»

الباب الخامس عشر

لم تمضِ بضعة أيام حتى خُيِّل إلى وانج لنج أنه لم يبتعد عن أرضه كما ابتعد عنها في هذه المرة. فاشترى بثلاث قطع ذهبية بذورًا جيدة من الجنوب، قمحًا وأرزًا وحبوبًا، لم يسبق أن زرع مثلها.

وبخمس قطع ذهبية اشترى ثورًا من فلاح كان يحرث أرضه. فقد شاهد رجلًا يحرث. فوقف، ووقف معه جميع أفراد أسرته، وراحوا ينظرون إلى الثور. لقد بهت وانج لنج بعنقه الضخم القوي، فصاح قائلًا: «هذا ثور حقير! بكم تبيعه، بالنقود الفضية أو الذهبية، إذ ليس عندي بهيمة وأريد الحصول على أي شيء؟»

فأجابه الفلاح بقوله: «من الأسهل علي أن أبيع زوجتي ولا أبيع هذا الثور الذي لم يتجاوز الثالثة من العمر، ولا يزال في أول حياته.» واستمر يحرث، ولم يقف ليتحدث إلى وانج لنج.

خُيِّل إلى وانج لنج أنه لا بد أن يحصل على هذا الثور من بين جميع الثيران الموجودة في الدنيا، فقال لأو-لان:

«كيف ترين هذا الثور؟»

فقالت أو-لان: «إنه أكبر مما يقول بسنة.»

غير أن وانج لنج لم يقل شيئًا، إذ صمم على اقتناء هذا الثور.

وأخيرًا بعد أخذ ورد وعراك، ترك الفلاح له الثور بقدر ثمنه في تلك الجهات مرة ونصف مرة. فقاده وانج لنج ومشى.

عندما وصلت عائلة وانج لنج إلى بيتها، وجدت بابه منزوعًا، واختفى أكثر السقف. كما أنها لم تجد الفأسين ولا شوكتَي جمع الحشائش التي تركتها. بَيْد أنه بعد زوال أثر الدهشة المفاجئة، لم يكن هذا أمرًا ذا بال يكترث له وانج لنج. فذهب إلى المدينة واشترى

محراثًا جديدًا متينًا، وشوكتين وفأسين، وحصيرًا لتغطية السقف ريثما يعيدون بناءه من جديد.

عندما أقبل المساء، وقف وانج لنج بباب داره: ومد بصره عبر الأرض، أرضه، وهي مفككة ويانعة بعد تجمدها في الشتاء، ومُعَدَّة للبذر. كان الوقت في عز الربيع. واستطاع، من خلال الشفق، أن يرى الأشجار عند حافة الحقل القريب. كانت أشجار خوخ وصفصاف وقد بدأت تُنبت أوراقًا غضة خضراء. وكان يتصاعد من الأرض ضباب خفيف فيعلق بجذوع الأشجار.

خُيِّل إلى وانج لنج، في بادئ الأمر، أنه لا يرغب في رؤية أحد. بل كان يفضل أن يبقى وحده في أرضه. فلم يذهب إلى بيت أي شخص في القرية. وعندما أتى إليه جيرانه، قابلهم بجفاء.

فصاح في وجوههم، قائلًا: «مَن منكم الذي نزع باب بيتي؟ ومَن منكم أخذ شوكتَيَّ وفأسَيَّ؟»

بعد ذلك جاء جاره تشنج، يزحف من منزله، ليرى وانج لنج، وقال:

«كان يعيش بمنزلك في الشتاء عصابة من اللصوص. ويقال إن عمك يعرف عنهم أكثر مما يجب أن يعرفه الرجل الشريف. وعلى أية حال، فما من أحد يعرف الحقيقة في هذه الأيام.»

لم يكن هذا الرجل إلا شبحًا حقًّا. كان هزيلًا ممتقع اللون، مع أنه لم يبلغ الرابعة والخمسين من عمره. فحملق فيه وانج لنج، ثم قال: «يبدو أنك رأيت أيامًا أسوأ مما رأينا. وماذا كنت تأكل؟»

تأوَّه الرجل في همس، وقال: «وماذا كنت لا آكله؟ أكلنا الكلاب الميتة. وذات مرة، قبل أن تموت زوجتي، أَعَدَّت لنا حساءً من لحم لم أجرؤ على أن أسأل ماذا كان.» وظل ساكنًا. وبعد مدة قال: «لو كان عندي بذور لزرعت ثانية. غير أنني لا أملك بذورًا.»

فقال وانج لنج: «تعالَ هنا!» وأخذه من يده إلى داخل البيت، وأعطاه قمحًا وأرزًا، وبذور كرنب، وقال له:

«سأذهب غدًا، وأحرث أرضك بثوري العظيم.»

بعد ذلك بدأ تشنج يبكي، فجأة، ولم يستطع أن يجيب عليه بشيء، وانصرف يبكي ويبكي.

ابتهج وانج لنج عندما عَلِمَ أن عمه قد غادر القرية، ولم يعرف أحد إلى أين رحل بالضبط.

أخذ وانج لنج يشتغل في الأرض، ولم يرغب حتى في أن يضيع وقتًا بمنزله في تناول الطعام وفي النوم. كان يعجبه أن يأخذ رغيفه وبعض الثوم إلى الحقل.

وإذا بلغ به الكلال غايته بالنهار، استلقى في أخدود ونام، مستدفئًا بحرارة أرضه الطيبة الملامسة لجسده.

أما أو-لان فلم تكن خاملة بالمنزل. فأخذت بيديها طينًا من الحقول وخلطته بالماء، وأصلحت حوائط البيت. وبَنَت الموقد من جديد، وسَدَّت الثقوب التي أحدثها المطر في أرض الحجرات.

وفي أحد الأيام، ذهبت إلى المدينة مع وانج لنج واشتريَا معًا أَسرَّة ومائدة وستة مقاعد. ثم اشتريَا، مسرورَين، إبريق شاي من الفخار الأحمر، وستة أقداح تناسبه. واشتريَا أخيرًا شمعدانين وشمعتين حمراوين.

بعد هذا فكَّر وانج لنج في الربَّين الصغيرَين الموجودَين بمعبد الأرض. فتمتم بعض كلمات على مضض وقال: «يجب أن أغرس عودين من البخور أمام الإلهَين القائمَين في المعبد، فعلى أية حال، لهما السلطة على الأرض.»

الباب السادس عشر

في إحدى الليالي، أحس وانج لنج بِصُرة صلبة على جسم زوجته، فقال لها: «ما هذا الذي تضعينه فوق جسمك؟»

ولما أمسك بها ليجذبها، تركتها له، وقالت: «حسنًا، انظر ما فيها إن كان لا بد لك من ذلك.» وسحبت الخيط الذي ربطت به الصرة إلى عنقها، وقطعته وأعطت زوجها الصرة.

كانت ملفوفة في قطعة من الخرق، فمزقها. فوقعت في يده فجأة كتلة من الجواهر، فنظر إليها وانج لنج مذهولًا. لقد عَلِم من بريقها وتألقها في الحجرة شبه المظلمة، أنه يمسك ثروة. فأمسكها وراح هو والمرأة ينظران معًا إليها. وأخيرًا همس إليها وهو مبهور الأنفاس: «من أين ... من أين ...؟»

فهمست إليه في رقة، قائلة: «من بيت الرجل الغني. رأيت آجُرَّة مزعزعة في الحائط، فنزعتها، فإذا بي أرى هذه الأشياء تتألق، فأخذتها وخبأتها في كمي.»

صمت كلاهما من جديد وهما يتطلعان إلى غرابة الأحجار. وبعد فترة طويلة، قال وانج لنج في حَزْم: «لا يمكننا الاحتفاظ بكنز هكذا. لا بد من بيعه وتحويله إلى أرض؛ فلا أمان لشيء غيرها.»

لف وانج لنج الأحجار في الخرقة ثانية. وعندما فتح معطفه ليضعها في صدره، نظر إلى وجه امرأته بمحض الصدفة. كان يتحرك ويتجلى فيه لهفة كئيبة.

فسألها: «ماذا تريدين الآن؟» وهو يعجب من منظرها.

وفي لهجة تَنُم عن اللهفة والعجز قالت: «أتمنى لو استطعت أن أحتفظ باثنتين منها لنفسي.» حتى إنه تأثر كما يتأثر لمنظر أحد أطفاله يتلهف إلى لعبة، أو إلى قطعة من الحلوى.

فصاح مدهوشًا: «وماذا الآن؟»

قالت في ذلة ومسكنة: «هل أستطيع الاحتفاظ باثنين منها؟ حجرين صغيرين فقط .. حتى ولو كانا اللؤلؤتين البيضاوين الصغيرتين ... يمكنني أن أتحسسهما بيدي أحيانًا.»

تأثر وانج لنج بشيء لم يفهمه، فأخرج الجواهر من صدره، وقدَّمها إليها في سكون. فأخذت تبحث في الأحجار المتألقة حتى عثرت على لؤلؤتين بيضاوين ناعمتين، فأخذتهما. ثم ربطت الباقي ثانية وأعادته إلى وانج لنج. أخذت اللؤلؤتين، ومزقت قطعة قماش من معطفها ولفتهما فيها، وأخفتهما في صدرها. وبذا ارتاحت.

ولكن وانج لنج شاهدها مستغربًا، وهو نصف عارف قصدها. أما فيما يختص ببقية الجواهر، فقد قرر أخيرًا أن يذهب إلى البيت العظيم ويسأل عما إذا كانت توجد لديهم أرض يمكنه شراؤها.

انطلق إلى البيت العظيم، ولم يكن يقف أمام بابه بواب في هذه الأيام، بل إن الأبواب موصدة، فشرع وانج لنج يطرقها بكلتا قبضتيه. ولكن أحدًا لم يخرج إليه. وأخيرًا سمع وَقْع أقدام آتية صوب الباب، وهمس صوت، يقول: «مَن الطارق؟»

عرف وانج لنج أن ذلك هو السيد العجوز نفسه، فأجاب: «سيدي وأميري! أتيتُ لأمر بسيط مع الوكيل الذي يخدم عظمتكم.»

فرد عليه السيد العجوز من خلال شق الباب: «لقد تركني ذلك الكلب منذ عدة شهور خلت، وليس هو ها هنا.»

لم يدْرِ وانج لنج ماذا يفعل بعد ذلك الرد. من المستحيل أن يتحدث عن شراء أرض مع السيد العجوز مباشرة.

فقال مترددًا: «أتيتُ من أجل مبلغ بسيط من النقود.»

ما إن سمع السيد العجوز ذلك حتى أغلق الباب في الحال، وقال بصوت أعلى مما اعتاد أن يتحدث به: «لا توجد نقود بهذا المنزل. لا يمكن دفع أية ديون.»

فصاح وانج لنج بسرعة، وقال: «كلا .. كلا، إنما جئتُ لأدفع، وليس لأحصِّل دينًا.»

عند ذلك سمع وانج لنج صيحة من صوت لم يسمعه من قبل، وأطلت امرأة بوجهها فجأة من الباب.

قالت المرأة في حدة: «هذا شيء لم أسمع به منذ زمن طويل.» وفتحت الباب فتحة تتسع لدخوله، ثم أغلقته ثانية.

وقف السيد العجوز هناك يسعل ويحملق، وقد لفَّ جسمه بثوب قذر من الساتين الرمادي. فحملق فيه وانج لنج بدوره، وقد لاح له أنه يستحيل أن يكون هذا هو السيد العجوز الذي سمع عنه كثيرًا، هذا الشخص المسن الذي لم يكن مهيبًا أكثر من والده.

والحقيقة أنه كان يقل عنه هيبة؛ لأن والده رجل عجوز نظيف باسم، أما هذا العجوز فلم يغسل جسمه ولم يحلق ذقنه.

أما المرأة فكانت في غاية النظافة. كان وجهها صلبًا حادًّا، ووجنتاها وشفتاها حمراء وصلبة. وأما صوتها فلا يدل على أنها من أسرة اللورد، بل عبدة حادة الصوت سليطة اللسان. ولم يكن يوجد بالمنزل أي فرد غير هذين.

فقالت المرأة بحدَّة: «ماذا عن النقود؟!» ولكن وانج لنج لم يستطع الكلام جيدًا أمام اللورد العجوز، ولاحظت المرأة ذلك في الحال، فقالت للرجل المسن: «انصرف من هنا!»

فانصرف السيد العجوز صامتًا لا ينطق بكلمة واحدة، وكان يسعل في أثناء سيره.

فقالت المرأة في حدَّة بالغة: «وماذا الآن، أيها الرأس الخشبي؟!» فوثب وانج لنج عندما سمع صوتها. فقالت: «ما هي مهمتك؟ إن كان معك نقود فأرنيها.»

فقال وانج لنج: «كلا، لم أقل إن معي نقودًا، بل جئت لعمل.»

قالت: «العمل يعني النقود.»

قال: «بيد أنه لا يمكنني التحدث في هذا مع امرأة.»

قالت: «ولمَ لا؟» ثم صاحت فيه فجأة: «ألم تسمع، أيها الغبي، أنه لا يوجد أحد هنا؟ ليس هنا سواي أنا والسيد العجوز .. وما من أحد آخر!»

فسألها وانج لنج: «أين إذن؟» وكانت دهشته بالغة، لدرجة أن كلامه كان عديم المعنى.

فأجابت المرأة، قائلة: «حسنًا. لقد ماتت السيدة العجوز. ألم تسمع كيف اقتحم اللصوص هذا المنزل ونهبوا كل ما اشتهوا أن ينهبوه؟ وعلقوا اللورد العجوز من إبهاميه وضربوه، وربطوا السيدة العجوز في مقعد، فهرب كل فرد كان هنا. ولكني بقيتُ واختبأت. وعندما خرجت كانوا قد هربوا، وماتت السيدة العجوز وهي جالسة على مقعدها، من الذعر.»

فقال وانج لنج وهو يلهث: «والخدم والعبيد؟»

فأجابته بعدم اهتمام: «كانوا قد انصرفوا منذ وقت طويل؛ إذ أطلق كل فرد العنان لقدميه؛ لأنه ما إن جاء منتصف الشتاء حتى نفد كل ما لدينا من الطعام والنقود.»

سكتت المرأة بعد ذلك، ثم قالت: «ولكن هذا لم يكن شيئًا غير متوقع؛ فقد كفَّ اللوردات في الجيل الماضي عن الإشراف على الأرض، وقنعوا بالنقود التي كان يعطيهم إياها الوكلاء، وأنفقوها.»

فسأل وانج لنج: «وأين اللوردات الصغار؟»

قالت: «هنا وهناك؛ فعندما سمع اللورد الأصغر بما حدث لوالده ووالدته، بعث رسولًا ليأخذ السيد العجوز. ولكنني حثثته على عدم الذهاب معه.»

نظر وانج لنج إليها مليًّا. بدأ يتأمل في كنه هذه المرأة التي تعلقت برجل عجوز على حافة القبر، لتحصل منه على آخر ما يمكنها الحصول عليه. فقال بازدراء: «أرى أنكِ لست إلا عبدة، فكيف أعقد معك صفقة عمل؟»

عندئذٍ صاحت فيه، قائلة: «سيفعل السيد العجوز أي شيء آمره به.»

أخذ وانج لنج يفكر في هذا الرد. ثم إن هناك الأرض التي يستطيع أن يشتريها غيره عن طريق هذه المرأة إذا لم يشترِها هو.

فقالت المرأة بسرعة: «إذا كنتَ قد أتيت لشراء أرض، فلدينا أرض للبيع. ليست كلها قطعة واحدة، ولكنها قطع كبيرة، ويمكن بيعها لآخر فدان.»

رأى وانج لنج أنها تعرف كل شيء تركه الرجل العجوز، ومع ذلك فلا يريد أن يعقد الصفقة معها.

فقال: «ليس من المعقول أن يبيع اللورد العجوز كل أرض عائلته بدون موافقة أولاده.»

فأجابت المرأة على قوله هذا بلهفة: «أما من هذه الوجهة، فقد أخبره أولاده بأن يبيع كلما استطاع أن يبيع.»

فسألها وانج لنج: «وفي يد مَن أدفع النقود؟»

قالت: «في يد السيد العجوز طبعًا. فهل تدفعها ليد أحد غيره؟» بيد أن وانج لنج كان يعرف أن يده تفرغ في يدها.

استدار وانج لنج قائلًا: «في يوم آخر .. في يوم آخر.»

انصرف وانج لنج يسير في الطريق ليفكر فيما سمعه. فذهب إلى مَشرَب شاي صغير وطلب قدحًا من الشاي. وعندما وضعه الصبي أمامه، أخذ يفكر في الأسرة العظيمة الغنية التي سقطت الآن وتشتَّت أفرادها.

فكر في نفسه قائلًا: «هذا يأتي من أرضهم.» ثم فكر في ولديه وقرر أن يجعلهما، في هذا اليوم عينه، يشتغلان في الحقل حيث يشعران، في عظامهما ودمهما، بالأرض التي تحت أقدامهما.

كانت الجواهر معه طيلة ذلك الوقت، ولن يهدأ له بال حتى تتحول إلى أرض. فأخذ يراقب صاحبَ المشرب حتى وجده خاليًا لحظة، فناداه وقال له: «تعالَ، واشرب قدحًا على حسابي، وأخبرني بأنباء المدينة إذ كنتُ غائبًا عنها منذ الشتاء الماضي.»

كان صاحب المشرب على استعداد دائمًا لمثل هذا الحديث، ولا سيما إذا شرب شايًا على حساب غيره. فجلس وأنشأ يتكلم من فوره: «فضلًا عن أنباء الشعب الجائع، التي ليست شيئًا جديدًا، فإن أعظم الأنباء هي السرقة التي حدثت في بيت هوانج.»

كان هذا عين ما يأمل في سماعه وانج لنج. واستمر الرجل يقص عليه كيف طُرد بضعة العبيد الباقين، أو أُخذوا، حتى إنه ما من أحد يهتم بالحياة في ذلك المنزل إطلاقًا. ثم أتم حديثه بقوله: «لا أحد غير اللورد العجوز، الذي تسيطر عليه تمامًا أَمَة تدعى كوكو.»

فسأله وانج لنج أخيرًا: «والأرض! هل هي للبيع؟»

فأجاب الرجل بعدم اكتراث، قائلًا: «آه، الأرض! سمعت أنها للبيع، ما عدا القطعة التي بها مدافن العائلة.»

بعدئذٍ نهض وانج لنج، وانصرف. فاقترب من الأبواب الضخمة من جديد. وأقبلت المرأة ثانية، فقال لها: «أخبريني أولًا؛ هل يضع اللورد العجوز خاتمه على عقد البيع؟»

فأجابته المرأة متلهفة: «يضعه .. يضعه .. أقسم بحياتي!»

فقال لها وانج لنج: «هل تبيعون الأرض بالذهب أم بالفضة أم بالجواهر؟»

تألقت عينَا المرأة وهي تجيبه بقولها: «أبيعها بالجواهر!»

الباب السابع عشر

أصبح وانج لنج يملك أرضًا أكثر مما يستطيع رجل أن يحرث بثور واحد، ويجمع المحصول. ولذلك بنى حجرة صغيرة أخرى في منزله، واشترى حمارًا، وقال لجاره تشنج: «بعني قطعة الأرض الصغيرة التي تملكها، واترك منزلك الذي تعيش فيه وحيدًا، وتعالَ إلى منزلي، وساعدني في خدمة الأرض.» ففعل تشنج كما طلب إليه وانج لنج، وسُرَّ لفعله.

عندما حان موعد الحصاد، لم يستطع وانج لنج وتشنج أن يجمعا المحصول وحدهما؛ إذ كان كبيرًا جدًّا، فاستأجر وانج لنج رجلَين آخرَين للعمل معهما، وبذا حصدوه جميعًا.

وبينما هو يشتغل في الحقل، تذكر اللوردين الصغيرين لبيت هوانج. فأخذ ولديه معه إلى الحقول، وجعلهما يشتغلان فيما تستطيعه أيديهما الصغيرة.

أما أو-لان، فلم يسمح لها بالعمل في الحقول؛ لأنه لم يعد فقيرًا بعد. ولم يحدُث أن أنتجت الأرض غلة كالتي أنتجتها في هذه السنة، فاضطُر إلى أن يبني حجرة بالمنزل، ليخزن فيها محاصيله. واشترى ثلاثة خنازير، وقطيعًا من الدجاج ليتغذى بالحبوب المتخلفة من الغلال.

كانت أو-لان إذن تعمل بالمنزل؛ فصنعت ملابس وأحذية جديدة لكل فرد. وعملت حشايا جديدة من القماش المشجر والقطن الدافئ لكل سرير. ثم رقدت على سريرها، وولدت مرة أخرى، رغم أنها لا تزال تلد وحدها دون أن يكون معها أحد.

عندما رجع وانج لنج إلى بيته في المساء، وجد أباه واقفًا عند الباب يضحك.

وعندما دخل الحجرة الداخلية، أبصر أو-لان راقدة على السرير، وبجانبها طفلان حديثَا الولادة. كانَا ولدًا وبنتًا، متشابهين تمام الشبه، كما تتشابه حبتان من الأرز.

ضحك وانج لنج بصوت مرتفع مما فعلته أو-لان. فابتسمت ابتسامتها البطيئة المؤلمة.

لم يكن لدى وانج لنج الآن ما يحزنه، سوى أن ابنته الكبرى لم تتكلم ولم تفعل شيئًا مما يناسب سنها. ولكنها كانت لا تزال تبتسم ابتسامة طفولتها. وقد ظل وانج لنج ينتظر، شهرًا بعد شهر، أن تنطق بأول ألفاظها ... غير أنها لم تنطق بعد، وعندما نظر إليها، تأوَّه قائلًا: «أيتها البلهاء الصغيرة .. يا بلهائي الصغيرة المسكينة!»

وكما لو كان يرغب في أن يعوِّض الطفلة، كان يهتم بها كثيرًا، وكانت تتبعه أينما ذهب صامتة. تبتسم عندما يتكلم وينظر إليها.

في هذه المنطقة التي عاش فيها وانج لنج طول حياته، وعاش فيها أبوه، وأبو أبيه، على الأرض، كان يحدث قحط كل خمس سنوات. أو إذا أشفقت عليهم الآلهة، كان يحدث كل سبع أو ثماني أو عشر سنوات. والسبب في ذلك هو أن المطر، إما أن يهطل وابلًا، وإما أن لا يسقط إطلاقًا. أو لأن النهر الشمالي كان يمتلئ بمياه الأمطار والثلوج التي تسقط شتاءً في الجبال البعيدة، فيفيض في الحقول من فوق الحواجز التي بناها القوم منذ عدة قرون، لتوقفه.

هرب الناس من الأرض، ثم عادوا إليها، مرةً بعد مرة. ولكن وانج لنج دبَّر أموره وثروته، بحيث إذا صادفته سنون سيئة، لا يُضطر إلى ترك أرضه مرة ثانية. وكانت المحاصيل تأتي من الأرض لمدة سبع سنوات. فكان وانج لنج ورجاله يحصدون محاصيل تزيد كثيرًا عن طعامهم. وكان يستأجر عمالًا في كل سنة، حتى صار لديه ستة من العمال. وبنى بيتًا جديدًا وراء بيته القديم، به حجرة كبيرة خلف بهو، وحجرتان صغيرتان على كل من جانبَي البهو. وغطى سقف هذا البيت الجديد بالقرميد. أما الحوائط فما زالت من اللبِن الذي يصنعه من طين حقوله. بَيْد أنه طلاه بالجير، فصار أبيض نظيفًا. وانتقل وانج لنج وأسرته إلى هذه الحجرات. وسكن العمال، وعلى رأسهم تشنج، في البيت القديم، أمامه.

بعد مرور خمس سنوات لم يعد وانج لنج يشتغل بنفسه في حقوله إلا قليلًا، وإنما كان يقضي كل وقته في بيع المحاصيل وما يتعلق بها من أمور، وفي الإشراف على عماله. وكان عدم معرفته بإمساك الدفاتر عائقًا كبيرًا يحيِّره، كما كانت موضع سخرية كتبة متاجر الحبوب. فقال في نفسه: «حقيقة إنه ليخجلني ألا أعرف القراءة والكتابة. ولكني سأسحب ابني الأكبر من العمل في الحقول وأُرسله إلى المدرسة بالمدينة، فعندما أذهب إلى أسواق الغلال، يتولى هو القراءة والكتابة لي. وبذلك أضع حدًّا لذلك الضحك مني.»

في نفس ذلك اليوم، دعا إليه ابنه الأكبر، وكان فتًى طويل القامة في الثانية عشرة من عمره، يشبه أمه منظرًا، وأباه سرعة نظر. فلما جاء أمامه قال له: «لا تشتغل بالحقول

من اليوم فصاعدًا؛ لأنني أريد أن يكون في أسرتي عالِم يقرأ العقود ويكتب اسمي حتى لا أخجل من نفسي في المدينة.»

عندئذٍ لمعت عينا الصبي، وقال: «أبتاه، هكذا كانت رغبتي في هاتين السنتين الأخيرتين، ولكني لم أجد الجرأة على طلب ذلك.»

لمَّا سمع الغلام الأصغر بهذا الأمر ملأ البيت عويلًا وأخذ يتذمر قائلًا: «وأنا كذلك لن أشتغل في الحقول.»

لم يحتمل وانج لنج صخب وضوضاء ذلك الصبي، فقال بسرعة: «حسنًا، وحسنًا جدًّا. كلاكما سيذهب إلى المدرسة.»

بعد ذلك أرسل أم ولدَيه إلى المدينة لتشتري قماشًا تصنع منه ثوبًا طويلًا لكل منهما. وأخيرًا أُعِدَّ كل شيء لإرسال الغلامين إلى مدرسة لرجل عجوز بقرب باب المدينة.

عندما صحبهما في أول يوم سار أمامهما؛ إذ لا يليق أن يسير الأب والابن جنبًا إلى جنب. وكان يحمل صرة زرقاء مملوءة بالبيض الطازج ليقدمه إلى المدرس العجوز عندما يصل إلى المدرسة. فلما بلغها، انحنى وانج لنج أمام الأستاذ حتى كاد رأسه يلمس الأرض، وقال: «أي سيدي، هاكَ ولديَّ الحقيرين. إن كان ثمة شيء سيُدفع في جمجمتيهما الغليظتين، فلن يكون إلا الضرب. ولذلك، إذا أردت أن تسرني، فاضربهما ليتعلمَا.»

عندما رجع وانج لنج وحده إلى منزله، كان الزهو يملأ قلبه، ولاح له أنه ما من صبي بين جميع الصبيان الموجودين بحجرة المدرسة، يعادل ولديه من حيث الطول والقوة والوجه البني اللامع.

منذ ذلك اليوم لم يُطلَق على الولدين «الأكبر والأصغر»، بل أطلق عليهما المدرس العجوز اسمين مدرسيَّين؛ فسمَّى الأكبر ننج إن، والأصغر ننج ون. واللفظ الأول لكل منهما معناه «شخص ثروته من الأرض».

الباب الثامن عشر

هكذا كوَّن وانج لنج ثروة بيته. وما إن أقبل العام السابع حتى طفح النهر العظيم المتجه إلى الشمال، بالماء؛ إذ هطلت أمطار غزيرة، ونزل ثلج كثير من المناطق الشمالية الغربية. فارتفعت المياه على الشاطئَين وغمرت جميع أراضي المنطقة. بيد أن وانج لنج لم يخشَ شيئًا؛ فلم يتطرق الخوف إلى نفسه على الرغم من أن خُمسَي أرضه صارت بحيرة يصل الماء فيها إلى أكتاف الرجل ويزيد. كانت أسواق الغلال مدينة له بالنقود. وكانت مخازنه مملوءة بغَلَّة السنتين الماضيتين. وكانت بيوته تقف هكذا شامخة فلا تصل إليها المياه.

لَمَّا لم يمكن زرع معظم الأرض، ظل وانج لنج بدون عمل، أكثر من أي وقت مضى في حياته كلها. وليس من اليسير على المرء أن يجلس وينظر إلى بحيرة من الماء تغطي حقوله. كما أنه لا يستطيع أن يأكل في وجبة واحدة أكثر مما تتسع له معدته. وعندما كان ينام، كان يملُّ النوم. وقد شمل المنزل هدوء لا يطيقه الدم المتوثب. أما الرجل العجوز فقد أصابه الضعف حتى أصبح لا يتحدث إليه أي فرد إلا ليسأله عمَّا إذا كان يشعر بالدفء والشبع، أو عمَّا إذا كان يريد قدحًا من الشاي. وقد أقلق وانج لنج ألَّا يستطيع والده أن يرى ما فيه ابنه من ثراء. وما كان أحد ليقول له شيئًا؛ لأنه كان ينساه في الحال.

ليس لدى الرجل العجوز، والبنت الكبرى التي لم تتكلم إطلاقًا، بل كانت تظل جالسة بجانب جدها ساعة بعد ساعة، تلوي بين يديها قطعة من المنسوج؛ ليس لدى هذَين ما يقولانه له. كان وانج لنج يدير وجهه دائمًا عن ابنته الكبرى في لحظة هدوء، وينظر إلى طفليه الصغيرين، الولد والبنت، اللذَين ولدتهما أو-لان معًا أخيرًا، واللذَين كانَا يجريان الآن في مرح.

غير أن المرء لا يمكن أن يقنع ببلاهة الأطفال الصغار؛ ولهذا أخذ ينظر إلى زوجته أو-لان. وخُيِّل إليه أنه ينظر إليها لأول مرة في حياته. فرأى لأول مرة أنها امرأة، لا يمكن

أن يصفها أي رجل إلا بأنها مخلوق غبي عادي، تعيش وهي صامتة، لا تفكر في منظرها، الذي تبدو به في عيون الآخرين. فلما نظر إليها هكذا، صاح قائلًا: «كل مَن ينظر إليك الآن، لا يقول إلا إنك زوجة رجل عادي، لا زوجة رجل يملك أرضًا.»

كانت هذه أول مرة يتكلم فيها عمَّا تبدو عليه أمام ناظريه. فعَلَتْ عظامَ خدَّيها حمرةُ خجل شديدة. وتمتمت قائلة: «منذ أن ولدتُ هذين التوءمين، وصحتي ليست على ما يرام. أشعر بالتهاب في أعضائي.»

فأجابها بخشونة أكثر مما أراد: «أقصد أن أقول، ألَا يمكنك أن تشتري قليلًا من الزيت لشعركِ، كما تفعل السيدات الأخريات، وتصنعي لك معطفًا من المنسوج الأسود؟»

ولكنها لم تُجب بشيء، بل نظرت إليه في ذلة. فأحس بعد ذلك كما لو كان قد خجل بينه وبين نفسه من أنه قد جرح كرامة هذه المخلوقة التي تبعته كل هذه السنين في وفاء، كما يتبع الكلب سيده، فاستمر يقول: «وأقدامكِ هذه ...»

لم يُتم وانج لنج كلامَه إذ كانت تبدو أمامه دميمة في كل شيء، ولكن أكثر دمامتها كان في قدميها الكبيرتين داخل الحذاء المصنوع من المنسوج القطني، فنظر إليهما باشمئزاز حتى إنها أدخلتهما تحت المقعد. وقالت أخيرًا هامسة: «لم تربط أمي قدميَّ؛ إذ باعتني عبدةً وأنا صغيرة السن. أما أنا فسأربط قدمَي الطفلة الصغيرة.»

خجلت أو-لان لغضب زوجها منها. أما هو فارتدى ثوبه الأسود الجديد، وقال: «سأذهب إلى مشرب الشاي الجديد عساي أسمع شيئًا جديدًا. لا أحد في منزلي غير البلهاوات ورجل عجوز وطفلين.»

كان بالمدينة مشرب شاي كبير افتتحه حديثًا رجل من أهل الجنوب. وأراد وانج لنج أن ينسى تعسُّفه مع زوجته، فذهب إلى ذلك المكان.

بادئ ذي بدء، لم يتكلم وانج لنج في مشرب الشاي العظيم، بل طلب قدحًا من الشاي واحتساه في هدوء، ونظر حواليه متعجبًا. كان المشرب بهوًا فسيحًا عُلِّقت على جدرانه لوحات من الحرير الأبيض رُسم عليها صور بعض النسوة ... خُيِّل إلى وانج لنج أنهن نساء عالم الأحلام. فنظر إليهن في اليوم الأول، وشرب الشاي بسرعة، وانصرف.

بَيْد أنه طالما كانت المياه تغطي أرضه، كان يذهب يومًا بعد يوم إلى ذلك المشرب ويطلب الشاي. كان يجلس وحيدًا ويشرب الشاي، ويحملق في صور السيدات الفاتنات. وكان سيستمر على تلك الحال لعدة أيام، لولا أنه بينما كان جالسًا يشرب الشاي ذات مساء، ويمعن النظر في الصور، إذ بشخص يأتي من السلم الضيق القائم في الطرف البعيد

للبهو، ويربت على كتفه. فالتفت مذعورًا. وما إن رفع رأسه حتى وقع بصره على الوجه الصغير الجميل، وجه المرأة كوكو، التي وضع في يديها الجواهر يوم أن اشترى الأرض.

فقالت وهي تضحك منه: «حسنًا. هذا هو وانج المزارع! ومَن كان يفكر في أن يراك هنا!»

خُيِّل إلى وانج لنج أنه لا بد أن يبرهن لهذه المرأة أنه أكثر من مجرد فلاح ريفي. فضحك، وقال بصوت عالٍ: «أليست نقودي التي أُنفقها، طيبة كنقود أي رجل آخر؟ وإني لأملك نقودًا في هذه الأيام.»

وقفت كوكو عند سماعها ذاك القول، وكان صوتها سلسًا كالزيت، فقالت: «ومَن ذا الذي لم يسمع بهذا؟ وهل ينفق أي رجل نقوده في مكان طيب، إلا في هذا المكان؟ لا يوجد نبيذ يفوق نبيذنا .. هل ذقته، يا وانج لنج؟»

أجاب وانج لنج وهو شبه خجلان: «لم أذق إلا الشاي حتى الآن.»

فصاحت مدهوشة وهي تضحك عاليًا: «شاي! وأظنك لم تنظر إلى شيء سواه، أليس كذلك؟»

قال: «كلا .. كلا .. لم أنظر ...»

ضحكت المرأة ثانية، وأشارت إلى الصور المرسومة وقالت: «اختر أية سيدة تريدها من هؤلاء، وضع النقود الفضية في يدي، وأنا أحضرها لك.»

فقال وانج لنج مستغربًا: «ظننتهن نساء الأحلام كاللائي يتحدث عنهن مَن يقصون الحكايات!»

أجابت: «إنهن نساء الأحلام، ولكنها أحلام تُحوِّلها قطعة فضية صغيرة إلى لحم.» ثم سارت في طريقها.

أما وانج لنج، فجلس يحدق النظر في الصور بمتعة جديدة، ورأى الآن أن بعضهن أجمل من البعض الآخر، وأن من بينهن واحدة أجملهن جميعًا؛ فتاة نحيلة العود ذات وجه صغير مدبب كوجه القطيطة، تُمسك في إحدى يديها ساق زهرة لوتس في برعمها.

أحدق النظر فيها، وقال فجأة في صوت مرتفع: «إنها لأشبه بالزهرة.» ولما سمع صوت نفسه، خجل ونهض بسرعة، ودفع حسابه، واختفى وسط الظلام.

الباب التاسع عشر

لو هبطت المياه في ذلك الوقت، لانقطع وانج لنج تمامًا عن الذهاب إلى مشرب الشاي العظيم، ولنسي الوجه المدبب المرسوم على المصورة الحريرية. بَيْد أن المياه لم تتحرك، وأصبح وانج لنج قلقًا، ويتحاشى عينَي أو-لان، التي كانت تنظر إليه في بؤس وهو يسير هنا وهناك، يرتمي على مقعد، ثم ينهض من فوقه دون أن يشرب الشاي الذي أفرغته له. وفي نهاية يوم طويل في الشهر السابع، دخل حجرته، من غير أن ينطق بكلمة واحدة، وارتدى معطفه الجديد المصنوع من القماش الأسود اللامع، وذهب إلى مشرب الشاي الجديد.

وقف وانج لنج في مدخل المشرب، في الضوء الساطع. وكان من الممكن أن ينصرف لولا أن خرجت له سيدة كانت متكئة بالداخل دون عمل. تلك هي كوكو. وما إن عرفته حتى قالت: «آه، إنه الفلاح ليس غير!»

غضب وانج لنج فأكسبه غضبه شجاعة لم يعهدها في نفسه من قبل، فقال: «وهلَّا أجيء إلى هذا المكان كما يجيء غيري من الرجال؟»

فضحكت، وقالت: «إن كان معك فضة كما مع غيرك من الرجال.»

عندئذٍ أراد وانج لنج أن يريها أنه غني بدرجة تُمكِّنه من أن يفعل ما يحلو له. فأخرج حفنة من النقود الفضية، وقال لها: «أهذه تكفي، أم لا تكفي؟»

أمعنت كوكو النظر في حفنة الفضة. وقالت: «ادخل وقل ما تريد.»

وبدون أن يدري وانج لنج معنى ما يقوله، تمتم قائلًا: «لست أعرف ما إذا كنت أريد شيئًا.»

ثم همس يقول: «تلك الصغيرة ذات الوجه الشبيه بالزهرة، التي تمسك في يدها برعم لوتس .. أريد مقابلتها.»

أصاب وانج لنج مرضٌ، أعظم مما يصيب أي رجل. كان يذهب كل يوم إلى مشرب الشاي، وكان يلتقي كل مساء بالفتاة المسماة لوتس.

دأب وانج لنج، طيلة الصيف القائظ، على زيارة هذه الفتاة التي لم يعرف عنها شيئًا. وقلما كان يصغي إلى حديثها السريع المتواصل. لم يلاحظ غير وجهها ويديها وجمال عينيها الواسعتين الحلوتين. وعندما ضحكت من ضفيرة شعره، انطلق دون كلمة واحدة وقصَّها، رغم أن أحدًا ما لم يستطع من قبل أن يجعله يقصها.

عندما رأت أو-لان ما فعله، انفجرت مذعورة وقالت: «لقد قطعتَ حياتك.»

ولكنه صاح فيها بقوله: «وهل سأظل أبدو كأبله من الطراز العتيق إلى ما شاء الله؟ إن جميع شبان المدينة يقصون شعورهم قصيرة.»

كان وانج لنج لا يغسل جسمه البني الطيب إلا نادرًا، أما الآن فقد شرع يستحم كل يوم، حتى إن زوجته قالت مهمومة: «ستموت من كل هذا الاستحمام!»

اشترى صابونًا معطرًا، وكان يدعك به جسمه. ولم يعُدْ، بأي ثمن، يأكل الثوم، مع أنه كان يحبه من قبل؛ وذلك حتى لا تكون رائحته كريهة أمام الفتاة لوتس.

لم يعرف أحد، في منزل وانج لنج، معنًى لكل هذه التصرفات.

غير أن أو-لان قالت له ذات يوم في صرامة: «إن في تصرفاتك ما يُذكِّرني بأحد لوردات المنزل العظيم.»

عندئذٍ ضحك وانج لنج عاليًا. ولكنه ابتهج في دخيلة نفسه. وكان رقيقًا معها في ذلك اليوم، أكثر مما كان معها في عدة أيام.

كانت النقود الفضية الطيبة تتدفق الآن من يدي وانج لنج؛ إذ كان عليه أن يشتري الدبابيس الذهبية والجواهر للفتاة. ولم تفاتحه أو-لان في شيء، بل كانت تلاحظه في ضيق شديد؛ إذ كانت تخافه منذ ذلك اليوم الذي لاحظ فيه أنها ليست على شيء من الجمال الشخصي، وأن قدمَيها كبيرتان. وكانت لا تسأله شيئًا خشية غضبه المستعد لها باستمرار.

كان وانج لنج عائدًا، ذات يوم، إلى داره المطلة على الحقول، فاقترب من أو-لان وهي تغسل ملابسه عند البركة. فوقف صامتًا برهة، ثم قال لها بخشونة؛ إذ كان خجلان: «أين اللؤلؤتان اللتان أخذتهما؟»

فأجابته في وجل وهي ترفع بصرها عن الملابس التي كانت تضربها فوق قطعة مستوية من الحجر، قائلة: «اللؤلؤتان؟! معي.»

فصاح فيها فجأة بعد فترة صمت: «هاتيهما .. إنني بحاجة إليهما.»

وضعت أو-لان يدها المبتلة المجعدة، في صدرها ببطء، وأعطته الصرة الصغيرة. وظلت تراقبه وهو يفض الصرة، فعكست اللؤلؤتان أشعة الشمس كاملة لطيفة، فضحك.

أما أو-لان، فعادت تضرب ملابس زوجها، والدموع تنهمر غزيرة من مآقيها في بطء، فلا ترفع يدها لتمسحها، بل كانت تضرب في سرعة أكثر، بعصاها الخشبية، الملابس المنشورة فوق الحجر.

الباب العشرون

كانت الحال ستستمر على ذلك المنوال إلى أن ينفق وانج لنج كل فضته لولا أن عمه عاد فجأة دون أن يوضح أين كان أو ماذا كان يفعل، فوقف بالباب وملابسه غير مقفلة بالأزرار، وتأوَّه بصوت عالٍ وهم جميعًا جالسون إلى المائدة يتناولون وجبة الصباح الباكر.

فنهض وانج لنج، وقال: «حسنًا، وها هو عمي. هل أكلت؟»

قال: «كلا، ولكني سآكل معكم.»

ثم جلس، وسحب أمامه طبقًا وعيدان تناول الطعام، وأكل كأنه كان جائعًا جدًّا. وبعد أن شبع، قال ببساطة كما لو كان هذا من حقه: «سأنام الآن؛ لأنني لم أذق للنوم طعمًا هذه الليالي الثلاث.»

لم يدْرِ وانج لنج ماذا يفعل إلا أن يقوده إلى سرير والده، فارتمى عليه العم واستسلم للنوم من فوره دون أن يتكلم كلمة واحدة.

عرف وانج لنج أنه لا يمكنه أن يطرد عمه طالما كان هذا يعلم أن ابن أخيه غني. كما عرف أن زوجة عمه ستأتي هي الأخرى إلى المنزل، ولا أحد يستطيع منعها.

حدث ما كان يخشاه وانج لنج؛ إذ خرج عمه من الحجرة بعد الظهر ومضى، وقال لوانج لنج: «سأحضر الآن زوجتي وابني؛ فلن نفتقر إلى ما نأكله في هذا البيت العظيم، ولا إلى الملابس الحقيرة التي نلبسها.»

لم يسَعْ وانج لنج إلا أن يجيب بنظرات ملؤها الغيظ؛ إذ من العار أن يطرد الرجلُ عمه وابن عمه من منزله وهو يملك ما يكفيه ويفيض. بَيْد أنه من نكد الدنيا على المرء أن يكون مغيظًا أشد الغيظ، ويُضطر إلى إخفائه، ويُرحِّب بأقاربه باسمًا. وبقي ثلاثة أيام لا يذهب إلى المدينة.

ولما وجد أن عمه وأسرته سيكونون مؤدَّبِين من أجل طعامهم ومأواهم، اتجهت أفكاره ثانية إلى الفتاة لوتس. وسرعان ما أدركت زوجة عمه ما هو عليه، فصاحت ضاحكة، تقول: «يحاول وانج لنج الآن، أن يقطف زهرة من مكان آخر.» فلما نظرت إليها أو-لان في ذلة، وهي لا تفهم ما تعنيه، ضحكت ثانية: «الأمر ببساطة، هو أن زوجك مُتيَّم حتى الجنون، بامرأة أخرى!»

سمع وانج لنج زوجة عمه وهي تقول هذا، وكان راقدًا في غرفته ذات صباح، فجال بفكره بغتة، أنها هي الشخص الذي سيرتب أمر زواجه. فنهض من سريره في الحال، وأومأ سرًّا إلى زوجة عمه. فلما تبعته إلى خارج البيت في مكان لا يسمعهما فيه أحد، قال لها: «لقد سمعت ما قُلتِه في الأبهاء. وإنكِ لعلى حق. لماذا لا أتزوج ثانية طالما عندي من الأرض ما يقوتنا جميعًا؟ ولكن، مَن يقوم لي بدور الوسيط؟»

أجابته في الحال: «اترك هذه المسألة في يديَّ. وكل ما عليك هو أن تخبرني فقط بمَن تكون هذه المرأة.»

عندئذٍ أجابها وانج لنج: «إنها المرأة المسماة لوتس، وتقطن بمشرب الشاي الكبير في الشارع الرئيسي للمدينة.»

أخذت تفكر برهة، ثم قالت أخيرًا: «لا أعرف أحدًا هناك.»

فأخبرها بالسيدة كوكو التي كانت عبدة في البيت العظيم، فضحكت وقالت: «تلك المرأة! إنه لأمر بسيط حقًّا. تقوم هذه المرأة بأي عمل إذا أحست بالفضة في كفها.»

فلما سمع وانج لنج هذا، قال: «الفضة فقط! الفضة والذهب! أي شيء، حتى ثمن الأرض نفسها!»

لن يذهب وانج لنج بعد ذلك إلى مشرب الشاي العظيم إلى أن يتم تدبير المسألة. وكان دائمًا ينطلق إلى زوجة عمه ليقدم المزيد من النقود والملابس الحريرية والأطعمة اللذيذة إلى لوتس. حتى صاحت فيه تلك المرأة البدينة أخيرًا، وقالت: «هل أنا غبية؟ أو هل هذه أول مرة أدبِّر فيها أمر الزواج بين رجل وفتاة؟ اترك المسألة لي وحدي، وأنا أنفِّذ كل شيء.»

بعد ذلك قال وانج لنج لنفسه أنه ما دام سيكون في البيت امرأتان فلا بد من وجود جناح آخر ... فريثما تُتِم زوجة عمه الموضوع، دعا عماله وجعلهم يبنون جناحًا آخر بالمنزل خلف الحجرة الوسطى، يتألف من بهو حوله ثلاث غرف. إحداها كبيرة، والاثنتان الأخريَان صغيرتان على الجانبين. فأحضر الرجال الطين من الحقول، وأقاموا الجدران وجعلوها ملساء. وأرسل وانج لنج مَن يشتري قرميدًا للسقف من المدينة.

عندما انتهى الرجال من بناء الحوائط، فرشوا أرض الحجرات الثلاث بالآجُرِّ، لأجل لوتس. واشترى وانج لنج منسوجًا أحمر للستائر، ومنضدة جديدة، ومقعدين مزخرفَين بالحفر، وصندوقًا أحمر ذا غطاء، مطليًّا بالبرداخ (اللاكيه)، كي يضع فيه كعك السمسم والحلويات التي ملأه بها، ثم وضعه على المنضدة. واشترى سريرًا منقوشًا بالحفر أيضًا، وحوله ستائر مزوقة برسوم الأزهار. وكان يخجل في كل هذا أن يطلب من أو-لان شيئًا. ولذلك جاءت زوجة عمه، وقامت بعمل الأشياء التي لا يتسنى للرجل أن يعملها.

تم كل شيء، ولم يبقَ ما يمكن عمله، ولكن المأمورية لم تنتهِ بعد. فاستدعى وانج لنج عاملًا، فحفر بركة مربعة الشكل طول ضلعها ثلاث أقدام، وبطَّنها بالقرميد. ثم ذهب وانج لنج إلى المدينة واشترى خمس سمكات ذهبية لهذه البركة.

في تلك الأثناء، كان لا يتحدث مع أحد بشيء، إلا ليزجر الأطفال إن كانوا قذرين، أو يصرخ في أو-لان لأنها لم تمشط شعرها لمدة ثلاثة أيام. ولذا انخرطت أو-لان في البكاء صباح أحد الأيام، وعلا نحيبها بدرجة لم يرها تبكي بها من قبل، فقال بخشونة:

«ماذا بكِ، أيتها المرأة؟ ألا يمكنني أن أقول لك أن تمشطي ضفيرتك الشبيهة بذيل الحصان، دون حدوث كل هذه الضجة؟»

ولكنها لم تجبه بشيء إلا لتكرر أنينها وقولها: «ولدتُ لك البنين ... ولدتُ لك البنين ...»

صمت وانج لنج لأنه خجل أمامها، فتركها وشأنها.

سارت الحال على هذا النمط حتى جاءت زوجة عمه في أحد الأيام، وقالت:

«تَمَّ الموضوع. ولكن يجب أن تدفع مائة قطعة من الفضة. وتريد هذه الفتاة قرطًا من اليشم، وخاتمًا من اليشم أيضًا، وآخر من الذهب، وثوبَين من الساتين، وثوبين من الحرير، واثنى عشر زوجًا من الأحذية، ولحافين من الحرير لسريرها.»

لم يسمع وانج لنج إلا جزءًا من هذا الكلام، حتى جرى إلى الغرفة الداخلية وأحضر الفضة، وقال لزوجة عمه: «وخذي لنفسك أيضًا عشر قطع طيبة من الفضة.»

فصاحت في همس عالٍ: «كلا، لن آخذ شيئًا، نحن عائلة واحدة، وقد قمتُ بهذا من أجلك أنت، لا من أجل الفضة.» ولكن وانج لنج وجد يدها ممدوة، فصبَّ فيها الفضة الطيبة. واعتبرها قد أُنفقت في موضعها الصحيح. واشترى كل شيء فاخر كان يعرفه، ثم انتظر.

في يوم مشرق من الشهر القمري الثامن، الذي هو نهاية الصيف، جاءت لوتس إلى منزل وانج لنج. فأبصر بها وهي قادمة من مسافة بعيدة. فلم يعد يعرف تمامًا ما يفعله. فدخل بسرعة غرفته التي كان ينام فيها طيلة هذه السنين العديدة، وأقفل الباب عليه، وبقي في الظلام حتى سمع صوت زوجة عمه تناديه ليخرج.

كانت كوكو هناك أيضًا، فصاحت قائلة: «تعالي، يا زهرتي، يا لوتس. هنا بيتك، وهنا سيدك.»

نزلت لوتس في دلال من هودجها الذي حضرت فيه، وأمسكت كوكو من يدها. وعندما مرت أمامه أحنت إليه رأسها، وخفضت أجفانها، وهمست بصوت خافت: «أين شقتي؟»

بعد ذلك تقدمت زوجة عمه، وقادتاها بينهما إلى البهو وإلى الحجرة الجديدة التي بناها وانج لنج خصيصًا لها. وما إن دخلت حتى سحبت كوكو الستائر خلفها.

بعد مدة خرجت زوجة عم وانج لنج تضحك قليلًا وهي تقول: «ليست صغيرة كما تبدو، يا ابْن أخي! أستطيع أن أقول بكل جرأة، إنها إذا لم تكن في حدود السن التي يكفُّ فيها الرجال عن النظر إلى النساء، لكان من المشكوك فيه أن يغريها اليشم والذهب والحرير والساتين، على أن تتزوج مزارعًا.» ولما رأت الغضب باديًا على وجهه، قالت بسرعة: «ولكنها جميلة. لم أرَ في حياتي امرأة تفوقها جمالًا.»

لم تقترب أو-لان، طوال كل ذلك الوقت، من المنزل. فعندما بزغ الفجر، حملت فأسًا، ونادت الأطفال، وأخذت قليلًا من الطعام البارد، ولم ترجع. وعندما أقبل الليل، دخلت البيت صامتة منهوكة القوى. ولم تتكلم مع أحد، وإنما ذهبت إلى المطبخ وأعدت الطعام ووضعته على المائدة كما كانت تفعل دائمًا. ونادت الرجل العجوز وأطعمت المسكينة البلهاء ثم أكلت بعض الشيء مع الأطفال. ولما ناموا جميعًا، استحمت قبل أن تنام، وأخيرًا ذهبت إلى حجرتها ونامت.

كان وانج لنج يدخل كل يوم حجرة لوتس، حيث يجدها جالسة لا تقوم بأي عمل. لم تكن لتخرج في حرارة أيام أوائل الخريف. بل تظل جالسة، بينما تغسل لها كوكو جسمها، إذ أمرت بأن تبقى كوكو معها كخادمة لها.

كانت هذه الفتاة تمكث كل يوم في برودة ظلام حجرتها، تتسلى بأكل الحلويات والفواكه، مرتدية ملابس الصيف الحريرية الخضراء. وكانت تخرج وقت غروب الشمس إلى البهو وتفحص البركة الصغيرة ذات السمكات الذهبية الخمس، بينما يقف وانج لنج يتأمل في عجيب ما لديه.

الباب الحادي والعشرون

تنبأ وانج لنج بأن مجيء الفتاة المسماة لوتس، وخادمتها كوكو لا بد أن يسبب إزعاجًا ما. لأن اجتماع امرأتين تحت سقف واحد لا يعني سلامًا. ورغم أنه أدرك من كآبة أو-لان وحدَّة كوكو، أن هناك نزاعًا ما، فإنه لم يُعِر الأمر أهمية.

ولكنه رأى أخيرًا أن هناك شقاقًا بين أو-لان وكوكو. فأدهشه هذا. إذ كان يتوقع أن تكره أو-لان لوتس. بيد أنها لم تشكُ من لوتس، وإنما كان حنقها بالغًا ضد كوكو.

يبدو أن أو-لان، عندما أبصرت كوكو، استشاطت غضبًا أي غضب، لم يرَ وانج لنج له مثيلًا. ولم يعرف أنها ستغضب ذلك الغضب الشديد ... فقالت له: «ماذا تفعل هذه الأمَة في بيتنا؟»

فلما وجد وانج لنج أنه لا بد من أن يجيب بشيء، قال بصوت منخفض: «وما شأنك بهذا؟»

ترقرقت العبرات الحارة، عندئذٍ، ببطء في عيني أو-لان، فأمسكت بطرف ميدعتها الزرقاء، ومسحت عينيها، ثم قالت: «إن الأمر جد مرير في بيتي، وليس لي بيت أمٍّ في أي مكان أعود إليه.» ثم نظرت إليه في حزن واستعطاف من طرفَي عينيها الغريبتين البكماوين. وخرجت تجرُّ قدميها جرًّا، وتتحسس طريقها إلى الباب إذ غشت الدموع على بصرها.

راقبها وانج لنج وهي تخرج، وسَرَّه أن تركته وحده، إذ كان قد خجل من نفسه.

غير أن أو-لان لم تنتهِ من هذا الموضوع. فلما أصبح الصباح، وضعت الماء على النار ليسخن. إلا أنه عندما ذهبت كوكو لتحضر ماء ساخنًا لسيدتها، وجدت القِدر فارغة. وعندما حان موعد إعداد عصيد الصباح في القِدر، لم يكن بالقدر مكان لماء للسيدة لوتس. كانت أو-لان تنهمك في الطهي ولا تجيب بشيء على شكاوى كوكو.

بعد ذلك ذهبت كوكو إلى وانج لنج وشكت إليه، فصاح يؤنب أو-لان. ولكنها كانت تجيبه بعبوس يعلو وجهها، أشد من أي عبوس ظهر على وجهها من قبل، قائلة: «لستُ في هذا البيت أَمَةً للإماء، على أقل تقدير.»

كان غضب وانج لنج فوق ما يطاق. فهزَّ أو-لان من كتفها هزًّا عنيفًا، وقال: «كفى بلاهةً، بعد الآن. ليس الماء للخادمة، بل للسيدة.»

فنظرت إليه وقالت ببساطة: «وقد أعطيتَ هذه السيدة لؤلؤتَيَّ!»

هبطت يد وانج لنج، وانصرف غضبه، وخرج خجلان، فقال لكوكو: «سنبني موقدًا آخر، ومطبخًا ثانيًا. إن الزوجة الأولى لا تعرف شيئًا عن الترف اللازم للزوجة الأخرى، والذي تتمتعين به أنت أيضًا. ستطبخين فيه ما يحلو لك.»

أمر وانج لنج العمال ببناء حجرة صغيرة وموقد من الطين. واشترى قِدرًا طيبة. ولاح له أن متاعبه قد انتهت، وأن السلام سيسود بين زوجتيه.

ظهر أخيرًا أن المطبخ الجديد قد أضحى مصدر متاعب لوانج لنج. فكل يوم تذهب كوكو إلى المدينة وتشتري جميع صنوف الأطعمة الفاخرة الغالية التي لم يسمع عنها قط. فكانت تكلفه نقودًا أكثر مما يود أن ينفق. ولكنه كان على يقين، تبعًا لما أخبرته به كوكو، من أن النفقات لم تكن باهظة. كما أنه كان يخاف أن يتحدث في هذا الأمر لئلا تستاء منه لوتس. فكان هذا سببًا في فتور حبه فتورًا طفيفًا، نحو لوتس.

نشأت متاعب أخرى، عن المتاعب الأولى. وهي أن زوجة عمه المولعة بالغذاء الجيد، كثيرًا ما كانت تدخل البهو الداخلي في مواعيد تناول الطعام حيث تجد حريتها. ولم يرق وانج لنج أن تتخذ لوتس هذه المرأة صديقة لها، من بين أهل بيته.

ولما فاتح لوتس في هذا الأمر برقة، غضبت وقالت: «ماذا، إذن؟ وليس لي أحد غيرك. وزوجتك الأولى تمقتني، وأطفالك يضايقونني، وليس لي أحد. إنك لا تحبني، إذ لو أحببتني لرغبتَ في سعادتي.»

عندئذٍ لانَ وانج لنج، وقال: «ليكن كما تشائين، وإلى الأبد.»

عندما كان يذهب إلى بهوها بعد ذلك، وكانت تتحدث إلى زوجة عمه، أو تأكل معها، كانت تتركه ينتظر ولا تهتم به. ففتر حبه لها قليلًا، رغم أنه لم يعرف ذلك. وهكذا حدثت ثغرات في حبه نحو لوتس، مرة بعد مرة، من جراء مسائل الغضب الصغيرة التي كان يزيد في حدتها أنه لم يؤنب أو-لان عليها.

خبَّأ القدر في جعبته لوانج لنج متاعب أخرى، فذات يوم استيقظ والده فجأة وهو نائم في الشمس، وتعثر في مشيته حتى وصل إلى المدخل ذي الستار، بين الحجرة الرئيسية

والبهو الذي كانت تسير فيه لوتس، والذي لم يلاحظه من قبل. فتوجه إليه، وأزاح الستار ... وتصادف أن كان في إحدى الأمسيات التي يسير فيها وانج لنج مع لوتس في البهو بجانب البركة، وهما يشاهدان الأسماك. فلما أبصر الرجل العجوز ابنه واقفًا بجانب فتاة نحيفة، صاح بصوت مشدوخ: «ما هذه المخلوقة التي بالمنزل؟»

خشي وانج لنج أن تغضب لوتس، فأخذ أباه إلى البهو الخارجي، وهدأه بقوله: «هوِّن عليك، يا أبتاه، إنها زوجة ثانية بالمنزل.»

بَيْد أن الرجل العجوز لم يهدأ، فصرخ في وانج لنج، قائلًا: «لم أتزوج سوى امرأة واحدة، وتزوج أبي امرأة واحدة أيضًا، وكنا نفلح الأرض.»

منذ ذلك الوقت والرجل العجوز يحس بعداوة ماكرة حيال لوتس. فكان يزيح ستار بهوها ويبصق على القرميد، أو يقذف حصاة صغيرة في البركة ليخيف السمك. وكان وانج لنج يخجل من أن ينهر والده، وفي الوقت نفسه كان يخاف غضب لوتس.

سمع وانج لنج، في أحد الأيام، صراخًا انبعث من الأبهاء الداخلية، فجرى إليها، فوجد أن طفليه الصغيرين صحبَا، إلى البهو الداخلي، ابنته الكبرى، بلهاءه المسكينة. إذ أُغرِم الأطفال الأربعة باستطلاع بعض الشيء عن السيدة التي تعيش في البهو الداخلي. كان الطفلان الكبيران يخجلان. أما الطفلان الصغيران فلم يقنعا قط بالنظر وغمس أصابعهما في أطباق الطعام التي تحملها كوكو بعد أن تفرغ تلك السيدة من تناول الطعام.

شكت لوتس عدة مرات من مضايقة الأطفال لها، فأجابها وانج لنج بقوله: «إنه ليعجبهم أن ينظروا إلى وجه حسن، كما يعجب ذلك والدهم.»

لم يفعل وانج لنج شيئًا إلا أن أمر الأطفال بعدم دخول بهوها. ولكنهم، عندما لا يكون والدهم هناك، ينطلقون إلى البهو سرًّا، جيئة وذهابًا.

في ذلك اليوم، كان الغلامان الكبيران بالمدرسة، ففكر الطفلان الصغيران في أن أختهما البلهاء يجب أن ترى السيدة التي في البهو الداخلي. فعندما رأت هذه البلهاء ما ترتديه لوتس من ألوان زاهية، مدت يديها لتتحسسها، وقهقهت ضاحكة. فذعرت لوتس، إذ لم ترها قبل ذلك إطلاقًا، فصرخت. وعندما أسرع وانج لنج يجري، صاحت قائلة: «لم أكن أعلم أنه يتحتم عليَّ أن أحتمل بعض البُلَهاء. ولو علمت ذلك لما أتيت .. أطفالك القذرون هؤلاء!»

فقال وانج لنج في خشونة: «لن أسمح بأن يُلعَن أي فرد من أطفالي، حتى ولو كانت بلهائي المسكينة.» ثم قال للأطفال: «أيْ بُني وابنتي، اخرجَا الآن ولا تعودا إلى بهو هذه المرأة ثانية لأنها لا تحبكما. وإذا كانت لا تحبكما فهي لا تحب أباكما أيضًا.»

ساء وانج لنج أيما إساءة، أن تجرؤ لوتس على أن تلعن ابنته هذه وتصفها بأنها بلهاء. فامتنع عن الاقتراب منها مدة يومين.

عندما ذهب ثانية إلى لوتس، لم يَقُل أحدهما للآخر شيئًا عن عدم مجيء وانج لنج في هذين اليومين. بَيْد أنها كانت تجتهد بصفة خاصة في أن تدخل السرور إلى نفسه، فأخذت يده ووضعتها على وجهها. ولكن رغم أنه أحبها ثانية، فإنه لم يحبها كما كان يحبها من قبل.

أتى يوم ولَّى فيه الصيف، وهبَّت ريح خريفية نظيفة على الأرض في عنف، فأفاق وانج لنج، كما لو كان من نوم. فذهب إلى باب داره، فرأى المياه قد جفت، وصارت الأرض لامعة بفعل الريح الباردة الجافة والشمس القوية.

تغلغل حب وانج لنج لأرضه في نفسه أعمق مما كان في أي وقت مضى. فخلع ملابسه الفاخرة، وشمر سراويله حتى الركبتين، وصاح قائلًا: «أين الفأس والمحراث؟ وأين بذور القمح لزرعها؟ هلم، يا صديقي تشنج .. هيَّا، نادِ الرجال .. سأخرج إلى الأرض!»

الباب الثاني والعشرون

كما شُفي وانج لنج من مرض القلب عندما عاد من المدينة الجنوبية، كذلك شُفي الآن من مرض الحب، بواسطة أرض حقوله الطيبة السوداء. فأمر عماله أن يذهبوا إلى هذا الموضع وذاك. وفي البدء كان يقف هو خلف الثيران، ثم عهد بذلك إلى تشنج، فسلمه خطامها، بينما أمسك هو بالفأس وطفق يعزق الأرض، إذ كان يهوى العزق، وليس لداعي الحاجة قط. فإذا ما تعب، استلقى على الأرض ونام.

عندما أقبل الليل، ذهب إلى بيته مكدود الجسم متعبًا ظافرًا، فأزاح الستار ودلج إلى البهو الداخلي حيث تتبختر لوتس في ثيابها الحريرية. فما إن رأته حتى صاحت فيه، لما على ملابسه من طين. ولما اقترب منها ارتجفت. ولكنه ضحك وقال: «الآن ترين أن سيدك ليس إلا فلاحًا، وأنكِ زوجة فلاح!»

فصاحت في حماس: «لستُ زوجة فلاح. أما أنت فكن ما تشاء!»

عندئذٍ ضحك وانج لنج وانصرف عنها في سهولة.

خُيِّل إلى وانج لنج أنه ابتعد مدة طويلة، وعرف فجأة أنه يجب أن يقوم بأعمال كثيرة.

عندما كان يرجع إلى بيته ظهرًا وفي الليل، كان يأكل جيدًا من الطعام الذي أعدته له أو-لان. من الأرز الجيد والكرنب وخثارة الفول وخبز القمح المحشو بالثوم الطيب. وعندما كانت لوتس تصيح فيه بسبب رائحة فمه، كان يضحك ولا يكترث. إذ شُفِي من مرض حبه.

هكذا احتلت هاتان المرأتان وظيفتيهما في البيت: لوتس كلعبته. أما أو-لان فكامرأة للعمل، وكأم أنجبت أولاده وتطعمه هو وأباه وأطفاله.

كان من فخر وانج لنج في القرية أن يتحدث الناس بحسد عن السيدة التي في بهوه الداخلي. فكانوا ينظرون إليه بعين الاحترام، ويعاملونه كشخص يعيش في بيت عظيم.

شُغل وانج لنج في ذلك الوقت بعدة أشياء. فقد هطلت الأمطار في موسمها، ونبت القمح ونما. وجاء الشتاء فأخذ وانج لنج غلة أرضه إلى الأسواق، إذ كان يحتفظ بحبوبه حتى ترتفع الأسعار. وصحب معه ابنه الأكبر في هذه المرة.

يحس المرء بالكبرياء عادة عندما يرى ابنه الأكبر يقرأ بصوت عالٍ ما كتب على الورق من حروف، ويكتب على الورق بالمرقاش (الفرشاة) والمداد ما يقرؤه الآخرون. وقد أحس وانج لنج بهذا الكبرياء الآن. ولكنه لا يدَّعي بأن هذا أمر غير عادي، أن يكون له ابن كهذا. فوقف مرفوع الرأس يتطلع إلى ابنه وهو يمسك بالمرقاش ويكتب.

فلما انتهى الابن من كتابة اسم أبيه على عقد بيع الحبوب، وعلى إيصال تسلُّم النقود، عاد كلاهما معًا، الأب والابن، إلى البيت. ورأى وانج لنج أنه يتحتم عليه أن يقوم بواجبه نحو ولده: أن يختار له عروسًا ويخطبها له.

أخذ وانج لنج على عاتقه أن يبحث عن فتاة لتكون زوج ابنه. ولم يكن هذا بالعمل الهين، لأنه لا يريد فتاة من عامة الشعب ولا أنثى عادية. فكان يتسمَّع الحديث في كل مكان بمشْرب الشاي، عندما يجرى ذكر الفتيات على الألسنة، أو سيرة الأثرياء بالمدينة الذين لديهم بنات للزواج.

جاء الربيع وبدأت أشجار الصفصاف تخضر قليلًا، وظهرت البراعم القرنفلية اللون في أشجار الخوخ، ولم يعثر وانج لنج على ضالته التي ينشدها لابنه.

أقبل الربيع بأيامه الطويلة الدافئة المعطرة بأريج أزهار البرقوق والكريز، وتغير ابن وانج لنج الأكبر فجأة، ولم يعد طفلًا. وصار عصبيًّا غضوبًا، لا يأكل هذا الصنف ويرفض أن يأكل من ذاك، وملَّ كتبه. وإذا غضب والده، انفجر باكيًا وترك له الحجرة. وزيادة على ذلك، بدأ يكره معلمه، ولا يذهب إلى المدرسة إلا إذا صاح فيه وانج لنج أو ضربه. وأحيانًا كان يقضي أيامًا كاملة يتسكع في طرقات المدينة.

وأخيرًا ضاق وانج لنج ذرعًا بابنه، فضربه حتى سمعته أو-لان وهرعت إليه من المطبخ، ووقفت بين ابنها وأبيه. وعندما انصرف الفتى، وقفت أو-لان أمام وانج لنج. فرأى أن لديها ما تريد الإفضاء به إليه، فقال لها: «تكلمي! ماذا تريدين أن تقولي، يا أم ولدي؟»

قالت: «لا فائدة من أن تضرب الصبي هكذا. رأيت هذا الشيء ينتاب اللوردات الصغار في أبهاء البيت العظيم. فإذا ما بدر منهم ذلك أسرع اللورد العجوز بتزويجهم.»

قال: «لا حاجة لأن يكون الأمر هكذا. فعندما كنت صبيًّا، لم أُقدِم على مثل هذا البكاء ولا هذه العصبية.»

فقالت أو-لان في تؤدة: «لم أرَ الأمر على هذا النحو إلا مع اللوردات الصغار. إنك كنت تشتغل في الأرض. أما هو فأشبه بلورد صغير، ولا يقوم بعمل ما في المنزل.»

كان هذا مفاجأة لوانج لنج. فبعد برهة من التفكير، رأى الحقيقة فيما تحدثت به. وزها في نفسه أن يكون له ابن هكذا. ولذا قال لأو-لان: «حسنًا، إذا كان كلورد صغير، فهذه مسألة أخرى. سأخطب له وأزوِّجه في سن مبكرة، ويجب عمل هذا.»

ثم نهض وذهب إلى البهو الداخلي.

الباب الثالث والعشرون

لما رأت لوتس أن وانج لنج مشغول بأمور غير جمالها، قطبت جبينها، وقالت:

«لو عرفتُ أنك بعد مرور سنة قصيرة ستنظر إليَّ ولا تراني، لما تزوجتك.» وأدارت رأسها وهي تتكلم، ونظرت إليه من طرفَي عينيها، حتى إنه ضحك، وقال: «لا يستطيع المرء أن يفكر دائمًا في جوهرة خاطها في معطفه. ولكنه لا يطيق فقدانها. شُغِل بالي بولدي هذين اليومين، وبأنه يجب أن يتزوج. ولا أدري كيف أهتدي إلى عروس تليق به.»

منذ أن صار الابن الأكبر فارع الطول، ورشيقًا بشبابه الغض، ولوتس تنظر إليه بعين العطف، فأجابت: «كنت أعرف رجلًا يتحدث كثيرًا عن ابنته، ويقول إنها تشبهني، وأنها جميلة نحيلة العود. بَيْد أنها لا تزال طفلة.»

فسألها وانج لنج قائلًا: «أي نوع من الرجال هذا؟ وما مهنته؟»

فأجابته بقولها: «كان رجلًا طيبًا، ولست أعرف مهنته، ولكني أعتقد أنه كان رئيسًا في سوق الغلال. وسأستعلم عنه من كوكو التي تعرف كل شيء عن الرجال وعن أموالهم.»

صفقت لوتس بيديها، فحضرت كوكو من المطبخ على عجل. فسألتها لوتس عن اسم ذلك الرجل، فأجابت في الحال: «إنه ليو، تاجر الحبوب، وسوقه في شارع الجسر الحجري.»

وقبل أن تتم كلامها، فرك وانج لنج يديه فرحًا، وقال: «إنه المكان الذي أبيع فيه غلالي. إنه مشروع طيب وممكن التنفيذ.» فقد لاح له أنه من حسن الحظ أن يزوج ولده ابنة التاجر الذي يشتري حبوبه.

ما إن يبدر أمر يحتاج إلى تنفيذ، حتى تشم فيه كوكو رائحة النقود، فقالت بسرعة: «إنني على استعداد لخدمة السيد.»

شك وانج لنج في قدرة كوكو على تنفيذ هذا المشروع، ولكن لوتس قالت مغتبطة: «ستذهب كوكو وتستوضح الأمر من ليو. وإذا تم الموضوع على خير وجه، أخذت أجر الخاطبة.»

فصاح وانج لنج: «كلا، فلم أقرر شيئًا بعد. لا بد أن أفكر في الأمر بضعة أيام، ثم أخبرك برأيي.»

وهكذا كان يمكن أن ينتظر وانج لنج عدة أيام يفكر في هذه وتلك، لولا أن ابنه الأكبر عاد إلى المنزل ذات يوم عند الفجر. وكان وجهه ساخنًا وأحمر اللون من احتساء النبيذ. وكان يتعثر في مشيته، ثم سقط على الأرض.

ارتاع وانج لنج، فنادى أو-لان، فرفعا الصبي، وأرقدته أو-لان على سريرها حيث استغرق في نوم عميق أشبه برجل ميت.

بعد ذلك دخل وانج لنج الحجرة التي ينام فيها الولدان، وسأل الغلام الأصغر: «أين كان أخوك الأكبر في الليلة الماضية؟»

ذُعر الولد، فانخرط في البكاء، وقال: «لا أعرف أين كان، ولكنه ذهب مع ابن عمك.»

عندئذٍ ذهب وانج لنج غاضبًا إلى حجرة عمه، ونسي أنه شقيق والده، ولم يفكر إلا في أن ذلك الرجل هو والد الشاب العاطل الوقح الذي أفسد ابنه اللطيف، فصاح: «لقد آويتُ جماعة من الثعابين الناكرة للجميل، فلدغتني!»

كان عمه يتناول طعام الإفطار. وما كان لينهض قط من فراشه قبل الظهر، فقال في كسل: «وماذا الآن؟»

أخبره وانج لنج بما حدث، ولمَّا لم يجبه بغير الضحك صاح قائلًا: «هيَّا، اخرج من بيتي الآن، أنت ومَن معك. إني لأفضِّل أن أحرق البيت على أن يئويكم.»

رأى وانج لنج أن عمه لم يكترث له، فخطا إلى الأمام، ورفع ذراعه. وعندئذٍ استدار عمه، وقال: «اطردني إن كانت لك الجرأة على طردي.» وفتح سترته وأطلعه على ما بداخل بطانتها.

ما إن أبصر وانج لنج ما بداخل سترة عمه، حتى وقف ساكنًا لا يتحرك. فقد رأى على البطانة لحية مستعارة من الشعر الأحمر، وشريطًا من المنسوج الأحمر. وهذان شعار عصابة من اللصوص تعيش في المنطقة الشمالية الغربية، أحرقت عدة بيوت، وربطت عددًا من المزارعين الأخيار بالحبال في أبواب بيوتهم حيث كان يجدهم الناس في اليوم التالي، إما في حالة هذيان، أو أمواتًا. فألقى وانج لنج نظرة على ذلك الشعار، واستدار منصرفًا دون أن ينبس ببنت شفة. وبينما هو منصرف، سمع ضحك عمه الخافت وهو ينحني على طبق الأرز.

كان عم وانج لنج يأتي ويخرج كسابق عادته. ولم يجرؤ وانج لنج على أن يتحدث إليه إلا بعبارات التوقير خوفًا من بطشه. وعرف فجأة السبب في سرقة غيره من الناس، وبقائه هو آمنًا طيلة إيوائه وإطعامه الأشخاص الثلاثة، أسرة عمه.

لم يتحدث وانج لنج مع عمه بعد ذلك في أمر مغادرته البيت. وكان يعطي زوجة عمه وابن عمه نقودًا فضية. وأخذ يراقب ابنه هو بنفسه، ولم يسمح له بمبارحة أبهائه بعد غروب الشمس، ولو أن هذا أغضب الفتى، فكان يدور في البيت ويصفع إخوته الصغار لغير ما سبب إلا سوء خلقه. وهكذا أحاطت المتاعب بوانج لنج.

وكأنما لم يكن هذا كافيًا، فقد رجعت كوكو من عند تاجر الغلال تخبره بأن الفتاة ما زالت صغيرة جدًّا على الزواج، وأنه يجب الانتظار ثلاث سنوات. ففزع وانج لنج من احتمال غضب وبطالة ذلك الغلام ثلاث سنوات أُخَر. وصاح في أو-لان تلك الليلة وهو يأكل: «هيَّا بنا نخطب لهؤلاء الأطفال الآخرين بأسرع ما في مكنتنا. وكلما بكرنا كان التبكير خيرًا. فلا أستطيع أن أحتمل تكرار هذا ثلاث مرات أُخر.»

خلع وانج لنج ملابسه الفضفاضة وحذاءه، في الصباح التالي، وكما كانت عادته عندما تتأزم الأمور في بيته، أخذ فأسًا وخرج إلى حقوله.

ظل يخرج إلى حقوله، يومًا بعد يوم، لعدة أيام. فإذا بسحابة صغيرة باهتة تظهر من الجنوب ذات يوم، كما لو كانت لتريحه من متاعبه. فنظر إليها أهل القرية والرعب يخيم عليهم، وكان ما ارتعدوا منه هو أن يأتي الجراد من الجنوب ليَلْتهم ما في حقولهم من زرع. فظلوا هكذا يحملقون في تلك السحابة. وأخيرًا قذفت الريح بشيء عند أقدامهم. كان ذلك الشيء جرادة ميتة.

نسي وانج لنج كل شيء أهمَّه، واندفع وسط القرويين المروَّعين، وصاح فيهم: «فلنحارب هذه الأعداء الوافدة من الجو دفاعًا عن أرضنا الطيبة!»

أما الجراد فانتشر في الجو وفوق الأرض.

نادى وانج لنج عماله، ووقف تشنج إلى جانبه صامتًا متأهبًا للعمل. وكان معهما بعض صغار الفلاحين، فأشعلوا بأيديهم الحريق في بعض الحقول، وأحرقوا القمح الطيب القائم في الحقول ناضجًا للحصاد تقريبًا، وحفروا خنادق عريضة، وملئوها بالماء من الآبار. ودأبوا على العمل دون أن يذوقوا طعم النوم. وكانت أو-لان تُحْضر لهم الطعام، كما أحضرت النسوة الأخريات الطعام لرجالهن. فكان الرجال يأكلون وهم واقفون يشتغلون في الحقول ليل نهار.

بعد ذلك اسودت السماء، وامتلأ الجو بضجيج حفيف كثير من الأجنحة، يصطفق كل منها بالآخر. وسقط الجراد على الأرض، يطير على هذا الحقل ثم يتركه كله، ويسقط على حقل آخر فيتركه قاعًا صفصفًا كالشتاء. فثارت ثائرة وانج لنج، وأخذ يضرب الجراد

ويطؤه بقدميه. وكذلك فعل رجاله، وسقط الجراد في النيران التي أُشعلت، وطفا ميتًا على سطح الماء في الخنادق التي حفروها. وماتت ملايين كثيرة من الجراد، ولكنها لم تكن شيئًا يُذكر بجانب الأحياء منها.

كوفئ وانج لنج على كل نضاله بنجاة خير حقوله. وكان لا يزال لديه قمح يحصده، وأُنْقِذت أحواض الأرز الصغير. فسرَّ وقنع. بعد ذلك طفق كثير من الناس يأكلون الجراد المشوي. ولكن وانج لنج نفسه لم يأكل منه شيئًا إذ عافته نفسه لما أحدثه من ضرر بأرضه.

رغم ما فعله الجراد بوانج لنج، فإنه ظل سبعة أيام لا يفكر في شيء إلا في أرضه. فقال لنفسه في هدوء: «لكل امرئ متاعبه. ولا بد أن أتغلب على متاعبي قدر طاقتي. وعمي يكبرني سنًّا وسيموت. ويجب أن تمرَّ ثلاث سنوات على ابني، كيفما كان ... ولن أقتل نفسي.»

حصد وانج لنج قمحه، وهطلت الأمطار، ونبت الأرز الصغير في الحقول المغمورة بالماء، ثم جاء الصيف من جديد.

الباب الرابع والعشرون

عاد وانج لنج إلى داره في ظهر أحد الأيام، فتقدم نحوه ابنه الأكبر، قائلًا: «أبتاه! لو أن لي أن أصير عالمًا، فليس لدى ذلك الرأس العجوز بالمدينة ما يُعَلِّمنيه.»

كان وانج لنج قد غمس فوطة في حوض من الماء المغلي، ورفعها أمام وجهه والبخار يتصاعد منها، فقال: «وماذا الآن؟»

تلعثم الغلام برهة، ثم أردف يقول: «إذا كان لي أن أصبح عالمًا، فإنني أودُّ الذهاب جنوبًا إلى المدينة، وألتحق بمدرسة كبيرة، حيث أتعلم ما يجب تعلمه.»

مسح وانج لنج وجهه بالفوطة المبتلة بالماء الساخن، وردَّ على ابنه في حدة: «ما هذا الهراء؟ أقول: هذا لا يمكن. لقد تعلمتَ ما يكفي لهذه البقاع.»

بَيْد أن الفتى وقف في مكانه ينظر إلى والده بحقد، وقال: «لن أبقى في هذا المنزل الغبي، وأُرَاقَب كما يُراقَب الأطفال. سأسافر وأتعلم شيئًا وأرى بقاعًا أخرى.»

نسي وانج لنج أنه كان يزهو بمعرفة ولده للكتابة واجتهاده في دروسه، فصاح فيه: «إذن فلتذهب إلى الحقول. ادعك جسمك بقليل من التربة الطيبة لئلا يظنك الناس سيدة، واشتغل قليلًا من أجل الأرز الذي تأكله!»

وقف الصبي ينظر إلى والده في مقت. ولكن وانج لنج لم يلتفت إلى الوراء ليرى ما يفعله الغلام.

عندما عاد وانج لنج ليلًا، ودخل الأبهاء الداخلية، وجلس إلى جانب لوتس وهي جالسة على سريرها، وكوكو تروح لهما بمروحة، قالت لوتس في خمول: «يرغب ابنك الأكبر في أن يرحل من هنا.»

«حسنًا، وماذا يعنيك من هذا؟ لا يمكنني أن أتركه في هذه الحجرات وهو في تلك السن.»

فأسرعت لوتس تقول: «لا .. لا .. إنها كوكو التي تقول ذلك.»

لم يفكر وانج لنج إلا في غضبه من ابنه، فقال: «كلا، لن يرحل، لن أنفق نقودي بلاهة.» ولم يتكلم عن هذا الأمر بعد ذلك.

لم يأتِ ذِكر هذا الموضوع لعدة أيام، ويبدو أن الفتى رضي فجأة بالأمر الواقع. ولم يذهب بعد ذلك إلى المدرسة، وقد سمح له وانج لنج بهذا.

كان يمكن أن يرتاح بال وانج لنج بعودة حياته إلى الهدوء ثانية، ورضي ابنه بحاله. غير أنه بينما كان جالسًا وحده في إحدى الليالي يعد على أصابعه ما يمكنه بيعه من الذرة، وما يمكنه أن يبيعه من الأرز، جاءت أو-لان إلى الحجرة في رقة.

مرت السنون على أو-لان، فجعلتها نحيلة هزيلة، غائرة العينين. وإذا سألها امرؤ عن صحتها فلا تقول غير: «توجد نار في أحشائي.»

كانت تصحو من نومها مع الفجر، فتقوم بعملها. وكان وانج لنج لا يراها إلا عندما يرى المائدة أو مقعده. وما كانت لتتكلم، بل تدأب على طبخ الطعام، وغسل الملابس عند البِركة حتى في الشتاء والماء كالزمهرير يكسر الثلج من فوقه. ولم يفكر وانج لنج في أن يقول لها يومًا ما: «لماذا لا تستأجرين خادمة أو عبدة بالنقود الزائدة عن حاجتي؟»

لم يفكر قط في أن هناك أية حاجة إلى مثل ذلك رغم أنه استأجر عمالًا لحقوله.

عندما جلس وحده في هذا المساء، وقفت أمامه، وقالت أخيرًا: «أريد أن أخبرك بشيء.»

فحملق فيها مدهوشًا، وأجاب: «إذن، فهاتي ما عندك.»

فقالت في همس خشن: «يذهب الولد الأكبر كثيرًا، للتحدث في الأبهاء الداخلية، وأنت غائب عن هناك.»

فحملق فيها وانج لنج.

قالت: «عُد إلى بيتك، يا سيدي، على غير انتظار.» وبعد فترة صمت، قالت: «مِن الخير أن ترسله إلى مكان ما، حتى إلى الجنوب.» ثم انصرفت في هدوء وتركته جالسًا هناك.

فقال وانج لنج في نفسه إن هذه المرأة تغار. ولكنه تذكَّر بعد ذلك أن لوتس كانت على علم برغبة ابنه في السفر، فقال لنفسه:

«لا بد لي من مراقبة هذا الأمر بنفسي!»

خرج وانج لنج بعد ذلك ليرى رجاله كعادته في وقت الحصاد والبذر. ثم صاح حتى يسمعه كل مَن بالمنزل: «سأذهب إلى قطعة الأرض المجاورة لخندق المدينة، ولن أعود مبكرًا.»

ما كاد وانج لنج يسير نصف الطريق، حتى جلس يفكر في نفسه، وأخذ يقلِّب الأمر في ذهنه عدة مرات، ويقول: «هل أرجع ثانية؟»

ثم عاوده الغضب، ورجع إلى منزله من طريق آخر، ودخل ووقف ينصت بجانب الستار المعلق على باب البهو الداخلي. فسمع صوت همهمة رجل، وكان صوت ابنه.

سرى في قلب وانج لنج غضب لم يعهده من قبل طول حياته. فصرَّ على أسنانه، وخرج فانتقى خيزرانة رفيعة مرنة، ونزع فروعها. ثم دخل فوجد ابنه واقفًا في البهو يتحدث إلى لوتس الجالسة على مقعد صغير عند حافة البِركة. ولم يسمعه كلاهما. ولكن كوكو خرجت ورأته وصرخت، فأبصراه.

انقض وانج لنج على ابنه وأخذ يضربه حتى سال منه الدم. ولما صرخت لوتس وأمسكت بذراعه، ضربها هي الأخرى. ثم رمى الخيزرانة، وهمس يصرخ في ابنه، وهو مبهور الأنفاس: «انصرف إلى حجرتك الآن، ولا تحاول الخروج منها حتى أتخلص منك، وإلا قتلتك!»

نهض الولد صامتًا لا ينطق بحرف واحد، وانصرف.

جلس وانج لنج على المقعد الذي كانت لوتس جالسة عليه، وكان صدره يعلو وينخفض في عنف، وهو يتنفس. ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منه. فظل هكذا جالسًا حتى هدأ، وانصرف غضبه.

نهض بعد ذلك مكدودًا، وخرج ومرَّ بحجرة ابنه، وناداه دون أن يدخل: «ضع أمتعتك في صندوق وارحل غدًا إلى الجنوب إلى حيث تريد، ولا ترجع إلى هنا حتى أرسل في طلبك.»

استمر وانج لنج في سيره حتى وجد أو-لان جالسة تخيط بعض ملابسه. وإذا كانت قد سمعت الضرب أو الصراخ فلم يبدر منها ما يشير إلى ذلك. ثم خرج وانج لنج إلى حقوله في شمس الظهيرة العالية قد برَّح به التعب كما لو كان اشتغل يومًا كاملًا.

الباب الخامس والعشرون

أما ابن وانج لنج الثاني فلم يشبه أخاه الأكبر كما يمكن أن يكون عليه شقيقان في بيت واحد. كان من طباعه ما ذَكَّر وانج لنج بأبيه، فقال: «سيكون هذا الولد تاجرًا ناجحًا، سأخرجه من المدرسة وأرى ما إذا كان يمكن أن يتتلمذ في سوق الغلال.»

ولذلك قال لكوكو ذات يوم: «اذهبي إلى والد خطيبة ابني الأكبر، وأخبريه بأن لديَّ شيئًا أود أن أتحدث إليه فيه.»

ذهبت كوكو ثم رجعت تقول: «سيقابلك متى شئت. فإذا ذهبت لتشرب النبيذ عنده ظهر اليوم، كان خيرًا. أو إذا رغبتَ، جاء ليقابلك هنا.»

وهكذا اغتسل وانج لنج، ولبس معطفه الحريري، وخرج يسير وسط الحقول. فذهب أولًا إلى شارع الجسور كما أخبرته كوكو، ثم وقف وطرق بيده بابًا على يمين الجسر ويبعد عنه ببابين.

فُتِح الباب في الحال، ووقفت به خادمة فسألته عمَّن يكون. فلما ذكر لها اسمه، تفرَّست فيه، وصحبته إلى بهو الرجال، ثم أمعنت النظر فيه ثانية إذ عرفت أنه والد خطيب ابنة صاحب البيت. ثم خرجت لتنادي سيدها.

أخذ وانج لنج يدقق النظر فيما حواليه، وسرَّه ما رأى. إذ كان هناك ما يدل على المعيشة الطيبة، وليس على الثراء الواسع. لم يكن يرغب في زوجة ابن غنية لئلا تكون متكبرة وغير مطيعة، وتطلب هذا اللون من الطعام وذاك، وهذه الملابس. وتغيِّر قلب ابنه من جهة والديه.

وفجأة سمع وانج لنج وقع أقدام ثقيلة، ودخل رجل عجوز ممتلئ الجسم. فوقف وانج لنج، وانحنى له. فانحنى له الرجل أيضًا. ونظر كل منهما إلى الآخر سرًّا، وكلاهما يحترم الآخر لمركزه كرجل ثري له قيمته. ثم جلسَا وشَرِبَا من النبيذ الساخن الذي صبته

لهما الخادمة. وتحدثًا ببطء في هذا الأمر وذاك. وأخيرًا قال وانج لنج: «جئت لأحدِّثك في أمر. فإذا لم يحظَ منك بالرضا، تكلمنا في غيره. إذا كنت في حاجة إلى خادم في سوقك العظيمة، فهاك ابني الثاني، وهو ذكي. وإن لم تكن بحاجة إليه، فلنتكلم في شئون أخرى.»

فأجاب التاجر بأسلوب راقٍ رقيق: «إنني في حاجة إلى شاب ذكي، إذا كان يعرف القراءة والكتابة.»

فأجاب وانج لنج مزهوًّا: «إن ولديَّ كليهما عالمان ماهران.»

فقال ليو: «هذا عظيم. وليأتني متى يشاء.»

نهض وانج لنج مسرورًا، وضحك وقال: «نحن الآن صديقان. أما عندك ولد لابنتي الثانية؟»

فضحك التاجر بعظمة إذ كان بدينًا ويتغذى غذاء طيبًا، ثم قال: «لي ابن ثانٍ يبلغ من العمر عشر سنوات، ولم أخطب له بعد. كم عمر الابنة؟»

ضحك وانج لنج ثانية، وقال: «ستبلغ العاشرة في عيد ميلادها القادم، وإنها لزهرة جميلة.»

ضحك الرجلان معًا. ولم يتكلم وانج لنج بعد ذلك إذ ليس هذا الموضوع بالأمر الذي يُتحدَّث فيه وجهًا لوجه أكثر من ذلك. ولكنه انصرف مغتبطًا. ولما عاد إلى بيته نظر إلى ابنته الصغرى، وكانت طفلة جميلة. وقد ربطت أمها قدميها ربطًا شديدًا، ولذا كانت تسير في خطوات قصيرة رشيقة.

لما نظر إليها وانج لنج من كثب، رأى على خديها علامات الدموع. وكان وجهها ممتقعًا قليلًا تبدو عليه أمارات الغضب الذي لا يتفق وسنها، فجذبها نحوه قليلًا من يدها الصغيرة، وقال: «ماذا يبكيك؟»

رفعت الطفلة رأسها وقالت في خجل، وفي شبه تمتمة: «لأن أمي ربطت قدميَّ بالقماش، وكل يوم تزيد الربط شدة حتى إنني لا أستطيع النوم بالليل.»

فقال مدهوشًا: «لم أسمعك تبكين.»

فقالت ببساطة: «كلا؛ لأن أمي قالت إنه لا يجب عليَّ أن أبكي بصوت مرتفع لأنك رحيم جدًّا ورقيق القلب فلا تتحمل سماع الآلام، وأنك قد تأمر بترك قدميَّ على حالهما، وبعد ذلك لا يحبني زوجي كما أنك لا تحبها.»

خُيِّل إلى وانج لنج أن خنجرًا قد أُغمد في صدره عند سماعه هذه العبارة. لأن أو-لان أخبرت الطفلة بأنه لا يحبها، وهي أم الطفلة. فقال بسرعة: «حسنًا. وقد سمعتُ اليوم عن زوج جميل لك، وسأطلب من كوكو أن تعمل على تدبير المسألة.»

فابتسمت الطفلة وخفضت رأسها. وفي ذلك المساء، قال وانج لنج لكوكو: «اذهبي واسألي عمَّا إذا كان بالإمكان إتمام هذا الأمر.»

استيقظ وانج لنج في تلك الليلة، وفكر في أو-لان، وكيف أنها كانت خادمة وفيَّة إلى جانبه، وفكَّر فيما قالته الطفلة. فحزن، لأنه على الرغم من كل غباوة أو-لان، فقد رأت حقيقته.

لأول مرة منذ زواج وانج لنج من أو-لان، بدأ يفكر فيها، فنظر إليها في حزن غريب، فرأى أنها نحلتْ وجفَّت بشرتها واصفرَّت لم يفكر في سبب رغبتها في البقاء دائمًا بالمنزل في المدة الأخيرة وفي أنها كانت تتحرك في بطء وتمشي في بطء أكثر. وتذكَّر، وقد فكر في ذلك الأمر الآن، أنه كان يسمعها أحيانًا، تئن في الصباح عند مغادرتها الفراش، وعندما تنحني لتضع الوقود في الفرن. فنظر إليها، وإلى الانتفاخ الغريب في جسمها، فامتلأ حزنًا، وناقش نفسه قائلًا: «ليس خطئي أنني لم أحبها.» ولكي يخفف عن نفسه قال: «لم يحدث أن ضربتها، كما كنت أعطيها النقود كلما طلبتها.»

ولكنه لم ينسَ ما قالته الطفلة. وكان ينظر دائمًا إلى أو-لان عندما تحضر له الطعام، أو عندما تمشي في البيت. وذات يوم، عندما انحنت لتكنس الأرض المصنوعة من الآجُرِّ، بعد تناول الطعام، امتقع لونها من الألم الداخلي، وتوجعت بأنين خافت، فسألها في حدَّة، وقال: «ماذا بك؟»

فأدارت وجهها، وأجابته برقَّة: «لا شيء غير الألم القديم في أحشائي.»

فنظر إليها وقال للبنت الصغرى:

«خذي المكنسة واكنسي لأن أمك مريضة.» وقال لأو-لان في رقة أكثر مما كان يكلمها به لعدة سنوات: «ادخلي إلى حجرتك واستريحي في سريرك، وسآمر البنت بأن تحضر لكِ ماءً ساخنًا. لا تقومي من الفراش.»

أطاعته في بطء، وبدون أن تردَّ عليه، استلقت على سريرها وأخذت تئن أنينًا خافتًا. فجلس ينصت إلى أنينها إلى أن عجز عن احتمال سماعه. فنهض وذهب إلى المدينة ليسأل عن دكان الطبيب.

وجد الطبيب جالسًا بدون عمل وأمامه إبريق من الشاي. فلما أخبره وانج لنج بأعراض مرض زوجته، فتح درجًا وأخذ منه لفافة مغلفة بقماش أسود، وقال: «سآتي الآن.»

عندما وصلا إلى سرير أو-لان، كانت نائمة نومًا خفيفًا والعرق فوق شفتها العليا وجبينها كقطرات الندى. وما إن رآه الطبيب حتى هزَّ رأسه، وقال: «إنها حالة صعبة. إذا

لم ترغب في ضمان الشفاء، كتبت لك وصفةً من أعشاب تُغلى معًا وتشرب منقوعها. ولكن إذا رغبت في ضمان تام للشفاء، فادفع خمسمائة قطعة فضية.»

سمعت أو-لان كلام الطبيب، فاستيقظت من نعاسها فجأة، وقالت في ضعف: «خمسمائة قطعة فضية.»

«كلا. إن حياتي لا تساوي كل ذلك المبلغ. يمكن أن تشتري به قطعة أرض طيبة.»

فلما سمعها وانج لنج تقول هذا، عاودته جميع أحزانه، وأجابها بخشونة: «لا أريد وفاةً في بيتي. وفي مقدري أن أدفع النقود الفضية هذه.»

فلما سمعه الطبيب العجوز يقول هذا، أبرقت عيناه جشعًا. ولكنه كان يعلم القانون إذا لم يبرَّ بوعده وماتت المرأة. وعلى ذلك قال: «كلا، فعندما نظرت إلى بياض عينيها. وجدتني مخطئًا. لا آخذ أقل من خمسة آلاف قطعة فضية لضمان الشفاء الكامل.»

عندئذٍ نظر وانج لنج إلى الطبيب في صمت. وفي تفاهم حزين. ليس لديه ذلك المبلغ من الفضة. وكان يعلم أنه حتى إذا باع أرضه فلا فائدة. لأن الأمر ببساطة كان كما قال الطبيب: «ستموت هذه السيدة.»

خرج وانج لنج مع الطبيب ونقده قطع الفضة العشر. وعندما انصرف الطبيب، دخل المطبخ المظلم الذي عاشت فيه أو-لان معظم حياتها، وأدار وجهه إلى الحائط المسود، وانخرط يبكي.

الباب السادس والعشرون

بَيْد أنه لم يكن بجسم أو-لان روح الموت الفجائي. بقيت راقدة على سريرها تموت، طيلة أشهر الشتاء. ولأول مرة عرف وانج لنج والأطفال ماذا كانت في البيت. وكيف كانت تعد أسباب الراحة لكل فرد، دون أن يعرفوا ذلك.

يبدو الآن أنه لا يوجد بينهم مَن يعرف كيف يشعل النار في القش ويحتفظ به متقدًا في الفرن. ولم يعرف أحد النوع الصحيح من الزيت الذي يُقلى به هذا النوع من الخضراوات أو ذاك، أهو زيت السمسم أم زيت الفول. وكانت فضلات المائدة وفتات الخبز تقع أسفل المائدة فلا يكنسها أحد إلا إذا ضاق وانج لنج برائحتها ونادى كلبًا من البهو ليأكلها. أو يصيح في البنت الصغيرة لتجمعها وترميها في الخارج.

كان الغلام الأصغر يقوم بهذا العمل وذاك ليملأ مكان أمه نحو الرجل العجوز جده، الذي كان عاجزًا وقتئذٍ كالطفل الصغير. ولم يكن بوسع وانج لنج أن يُشعِر الرجل العجوز بما حدث، وأن أو-لان لن تحضر إليه الشاي أو الماء الساخن بعد ذلك. وأخيرًا صحبه وانج لنج إلى حجرة أو-لان، وأراه السرير الذي كانت نائمة عليه. فبكى الرجل العجوز إذ أدرك أن هناك سوءًا ما.

أما البلهاء المسكينة فهي وحدها التي لم تعرف شيئًا. فكانت تبتسم وتلوي قطعة المنسوج وهي تبتسم. بَيْد أنه لا بد للمرء من الاعتناء بهذه المسكينة، والاهتمام بنومها ليلًا، وبإطعامها، وبوضعها في الشمس نهارًا وإدخالها إلى المنزل إذا نزل المطر. يجب أن يتذكر أحدهم كل هذه الأشياء. غير أن وانج لنج نفسه كان ينسى. وذات مرة تركوها خارج البيت ليلة كاملة. فغضب وانج لنج من ابنه وابنته لأنهما نسيَا البلهاء المسكينة أختهما. ثم وجد أنهما ليسَا سوى طفلَين يحاولان القيام بعمل أمهما فيعجزان عنه. وبعد ذلك، صار يهتم بأمر البلهاء المسكينة بنفسه صباحًا ومساءً.

لم يهتم وانج لنج بالأرض طيلة أشهر الشتاء وأو-لان راقدة تموت. فوَكَّلَ عمل الشتاء والإشراف على العمال إلى تشنج الذي كان يشتغل في إخلاص، وكان يأتي صباحًا ومساءً إلى باب الحجرة التي ترقد فيها أو-لان ليسأل عن صحتها. وأخيرًا لم يحتمل وانج لنج ذلك، لأن صحتها لم تتحسن، فأخبر تشنج بأن لا داعي للسؤال عنها بعد ذلك، بل يكفي أن يقوم بالعمل على خير وجه.

كان وانج لنج يقضي معظم وقته طيلة الشتاء البارد جالسًا إلى جانب سرير أو-لان. وإذا وجد جسمها باردًا وضع بجانب سريرها مدفأة بها فحم نباتي متقد ليدفئها. فكانت في كل مرة تتمتم بضعف: «إن هذا يتكلف كثيرًا.»

وأخيرًا، عندما قالت هكذا، ذات يوم، لم يطق احتماله، فانفجر صائحًا: «لا يمكنني تحمُّل هذا! إنني على استعداد لأن أبيع كل أرضي إن كان بالإمكان شفاؤك.»

ابتسمت أو-لان عند ذلك، وهمست تقول: «كلا، ولن أجعلك تفعل هذا؛ لأنني لا بد أن أموت يومًا ما بأية حال، أما الأرض فستبقى بعدي.»

ولكنه لا يريدها أن تتكلم عن موتها، فلما تحدثت عن الموت، نهض وخرج.

ومع ذلك، فلأنه كان يعرف أنها لا بد أن تموت، وأنه يجب أن يقوم بواجبه، ذهب في أحد الأيام إلى المدينة إلى حانوت صانع النعوش، وأخذ ينظر في كل نعش هناك، من النعوش المعدَّة للبيع. فاختار نعشًا طيبًا أسود اللون، مصنوعًا من الخشب الثقيل الصلب. فقال له النجار الذي كان يطلعه على النعوش: «إذا اشتريت نعشَين حصلت على خصم ثلث الثمن. ولماذا لا تشتري نعشًا لنفسك وتطمئن عليه؟»

قال وانج لنج: «كلا، في استطاعة أولادي أن يقوموا بهذا العمل.» ثم فكَّر في والده، فقال ثانية: «هناك والدي العجوز، وسيموت قريبًا يومًا ما، وعلى ذلك سآخذ نعشَين.»

وعده الرجل بأن يطلي النعشين بلون أسود جيد، ويرسلهما إلى بيته. فأخبر أو-لان بما فعل، فسرَّت من أنه قد أعد ما يلزم لدفنها.

وهكذا كان يجلس بجانبها عدة ساعات من النهار. ولم يتكلمَا كثيرًا، لأنها كانت ضعيفة. وفضلًا عن هذا فلم يكن هناك حديث قط بينهما. وكثيرًا ما كانت تنسى أين هي. وكانت تتمتم أحيانًا بعبارات عن أولادها. ولأول مرة رأى وانج لنج ما في قلبها عن طريق مثل هذه الكلمات الموجزة: «سأحضر اللحم إلى الباب فقط .. وأنا أعرف أنني دميمة الخلقة ولا أستطيع الظهور أمام سيد عظيم ...» ثم تقول وهي تلهث: «لا تضربني .. لن آكل من الطبق مرة أخرى ...» ثم تكرِّر عدة مرات قولها: «أعلم أنني قبيحة المنظر ولا يمكن أن يحبني أحد ...»

عندما قالت هذا، لم يطق وانج لنج سماعه. فأمسك يدها. ولكنه لم يحب تلك اليد المتخشبة التي في طريق الموت. ومن أجل هذا كان أكثر عطفًا عليها. فاشترى لها طعامًا خاصًّا. ومهما فعل، فلم يستطع أن ينسى أو-لان.

في بعض الأوقات كانت تصحو أو-لان إلى ما حولها. وذات مرة طلبت كوكو. فلما أرسل وانج لنج يطلبها، رفعت أو-لان نفسها على ذراعها وهي ترتعش، وقالت في وضوح تام: «ربما تكونين قد عشت في أبهاء اللورد العجوز، وكنت تعتبرين جميلة. ولكني كنت زوجة رجل وولدت له البنين وأنت لا تزالين عبدة.»

لما أرادت كوكو أن ترد على ذلك في غضب، قادها وانج لنج إلى الخارج، قائلًا: «لا تعرف هذه المرأة معنى ما تقوله.»

ثم قالت له أو-لان عندما عاد إلى الحجرة: «بعد أن أموت، يجب ألا تدخل هذه المرأة ولا سيدتها حجرتي، أو تمسَّا أمتعتي. وإذا فعلتَا أرسلت روحي ثانيةً لتصب اللعنة.» ثم استغرقت في نومها المضطرب، وسقط رأسها على الوسادة.

غير أنها، ذات يوم، قبل حلول السنة الجديدة، تحسنت فجأة، وجلست على سريرها وطلبت شايًا لتشرب وعندما أتى وانج لنج، قالت له: «سيأتي العام الجديد ولم يُعد الكعك ولا اللحوم، وقد فكرت في شيء. لا أريد هذه العبدة في مطبخي، بل أود أن ترسل في طلب عروس ابني، المخطوبة لابننا الأكبر. لم أرها بعد. ولكن عندما تأتي، سأخبرها ماذا تفعل.»

سرَّ وانج لنج لقوتها، رغم أنه لم يهتم بعمل ولائم في هذه السنة. فأرسل كوكو إلى ليو تاجر الغلال. وبعد برهة وافق ليو عندما سمع أن أو-لان قد لا تعيش حتى نهاية الشتاء. وعلى أية حال، كانت ابنته في السادسة عشرة من عمرها، وأكبر من بعض مَن يذهبن إلى منازل أزواجهن.

مراعاة لحال أو-لان، لم يُقِم وانج لنج أية ولائم في العيد. وحضرت الفتاة في هودج، ولم يأتِ معها سوى أمها وخادمة عجوز. ورجعت أمها بمجرد أن تركتها مع أو-لان أما الخادمة فبقيت لخدمة الفتاة.

لم يتحدث وانج لنج إلى الفتاة إذ لم يكن هذا لائقًا. ولكنه سُرَّ منها لأنها كانت تعرف واجبها. وكانت تسير بالمنزل في هدوء وهي تخفض عينيها. وكانت على قدر كافٍ من الجمال، ولكن جمالها لم يكن بارعًا حتى يدفعها إلى الغرور. وكان جميع سلوكها صحيحًا. فتدخل حجرة أو-لان وتعتني بها. وهذا ما خفف من حزن وانج لنج على زوجته، إذ كانت توجد سيدة بجانب فراشها. وكانت أو-لان مسرورة غاية السرور.

ظلت أو-لان مسرورة مدة ثلاثة أيام أو يزيد، ثم فكرت في شيء آخر، وقالت لوانج لنج: «لي طلب قبل أن أموت.»

فردَّ عليها في غضب، قائلًا: «لا يمكن أن تتحدثي عن الموت وتدخلي السرور إلى نفسي!»

فابتسمت ببطء ثم قالت: «لا بد من أن أموت، لأنني أحس بالموت ينتظر في أحشائي. غير أنني لا أريد أن أموت قبل أن يعود ابني الأكبر إلى بيته، ويتزوج هذه الفتاة اللطيفة، التي هي زوجة ابني. أريد أن يتزوج هذه الفتاة حتى أموت مرتاحة.»

لم يعارضها وانج لنج، ولو أنه كان يرغب في فسحة من الوقت أكبر من ذلك، كي يقيم حفل عرس فخمًا لابنه الأكبر، فقال لها: «حسنًا. سننفذ هذا الطلب. وسأرسل اليوم رجلًا إلى الجنوب ليبحث عن ابني ويعود به ليتزوج. أما أنتِ فيجب أن تَعديني بألا تفكري في الموت لتتحسن صحتك. لأن البيت بدونك أشبه بمغارة وحوش.»

قال هذا ليدخل السرور إلى قلبها. وفعلًا اغتبطت، ولو أنها لم تتكلم ثانية، بل رقدت ثانية وأغمضت عينيها، وهي تبتسم قليلًا.

أوفد وانج لنج رجلًا ليحضر ابنه، وأمر كوكو بأن تُعِدَّ وليمة كأحسن ما يمكنها، وأن تستدعي طهاة من مشرب شاي المدينة لمساعدتها، وقال: «أعديها كما لو كانت ستُعَدُّ في البيت العظيم في مثل هذه المناسبة، وعندي من الفضة ما يكفي ويفيض.»

بعد ذلك ذهب إلى القرية ودعا كل شخص يعرفه، ثم ذهب إلى المدينة ودعا كل مَن يعرفه أيضًا، وقال لعمه: «ادعُ مَن شئتَ إلى حفل عرس ابني.»

وكان وانج لنج لطيفًا مع عمه، ويعامله كضيف موقَّر. وهكذا كان يفعل منذ أن عرف مَن هو عمه.

عاد ابن وانج لنج الأكبر في الليلة السابقة للزواج، ونسي وانج لنج كل المتاعب التي سببها له عندما كان بالمنزل، إذ مرَّ أكثر من سنتين منذ أن رآه آخر مرة. لم يعُد غلامًا، بل صار رجلًا فارع الطول لطيفًا. فصحبه إلى أمه.

جلس الشاب إلى جانب سرير أمه، وترقرقت الدموع في عينيه وهو يراها على تلك الحال. فقالت أو-لان ببساطة: «سأراك تتزوج ثم أموت.»

لا يجب أن يرى الشاب عروسه في ذلك الوقت. ولهذا أخذتها لوتس معها إلى البهو الداخلي لتعدَّها للزواج. لم يكن هناك مَن يقوم بهذه المأمورية خيرًا من لوتس وكوكو وزوجة عم وانج لنج. فأخذن الفتاة، وفي صباح يوم العرس، غسلنها من رأسها إلى قدميها، وربطن قدميها ثانية بقماش أبيض جديد تحت جوربها الجديد. ثم ألبسنها الثياب الجديدة التي

أحضرتها معها من منزلها، ثم ثياب العرس الساتينية الحمراء. وجعلن جبينها مرتفعًا وناعمًا ومربعًا. ثم طَلَيْنَ وجهها بالمسحوق (البودرة)، والأصباغ الحمراء، ووضعن على رأسها تاج العروس وخمارًا مُوشى بالخرز. كما ألبسنها حذاءً مطرزًا. وصبغن أطراف أصابعها، وعطرن كفيها وكانت الفتاة خجلى من كل شيء، كما يليق بها.

عندما كان وانج لنج وأبوه وعمه والمدعوون منتظرين في الحجرة الوسطى، وأقبلت الفتاة تسندها خادمتها وزوجة عم وانج لنج، وقد خفضت العروس رأسها كما لو كانت لا تريد أن تتزوج رجلًا، سُرَّ وانج لنج، وقال في نفسه إن هذه هي الفتاة المناسبة الصحيحة.

بعد ذلك أقبل ابن وانج لنج الأكبر مرتديًا ثوبه الأحمر وسترته السوداء وقد لمع شعره وحلق ذقنه، وجاء خلفه أخواه. وفكر وانج لنج في نفسه أنه لو كانت أو-لان في صحة جيدة وغير راقدة في سريرها، لكان يومًا سعيدًا حقًّا.

لاحظ وانج لنج أن الشاب ينظر إلى الفتاة خلسة وهو مسرور مغتبط على طريقته الخاصة. فقال في نفسه مزهوًّا: «لقد اخترتُ له فتاة يحبها.»

بعد ذلك انحنى الشاب والفتاة معًا أمام الرجل العجوز وأمام وانج لنج، ثم ذهبَا إلى الحجرة التي ترقد فيها أو-لان. فطلبت هذه أن يلبسوها معطفها الأسود القيم. وجلست. وعندما دخل العروسان انحنيَا أمامها، فربَّتت بيدها على السرير، وقالت: «اجلسَا هنا واشربَا النبيذ، وتناولا أرز عرسكما، لأني أود أن أرى كل شيء. فسأنتهي سريعًا وأُحمل إلى المدافن.»

لم يُجب أحد على كلامها عندما قالت هذا. وجلس العروسان بجانب بعضهما صامتَين، وقد خجل كلٌّ منهما من الآخر. ودخلت زوجة عم وانج لنج بدينة عظيمة، تحمل قدحَين من النبيذ الساخن. فشرب كلٌّ منهما من قدحه على انفراد، ثم مزجَا نبيذ القدحَين وشربَا ثانية، وأكلَا من الأرز، ثم خلطَا الأرز. وبهذا صارَا زوجين. وبعد ذلك انحنيَا ثانية أمام أو-لان ووانج لنج، ثم خرجَا سويًّا، كما انحنيَا لجميع المدعوين.

امتلأت الحجرات والأبهاء بالموائد وبرائحة الطعام وبصوت الضحك إذ جاء المدعوون من كل قاصٍ ودانٍ. وأحضرت كوكو طهاةً من المدينة، فأعدوا الوليمة، وأكل كل فرد كفايته وشرب قدر طاقته، وكانوا جميعًا مسرورين.

طلبت أو-لان أن تُفتَح جميع الأبواب، وتُزاح كل الستائر حتى يمكنها أن تسمع الضوضاء والصخب والضحك، وتشم رائحة الطعام. وكثيرًا ما كان يدخل وانج لنج ليطمئنَّ على صحتها، ويؤكد لها أن كل شيء يسير وفق رغبتها. فاغتبطت وهي راقدة تنصت إلى ما يدور في الحفل.

انتهى الحفل وانصرف المدعوون، وأقبل الليل. وغدت أو–لان مُتعبَةً واعتراها الضعف. فاستدعت إليها العروسين اللذَين تزوجَا في ذلك اليوم، وقالت لهما: «إنني راضية مطمئنة الآن، وسيعمل مَرَضي ما بدا له. أي بُنيَّ، اهتم بأمر والدك وأمر جدك. وأنت يا بُنيَّتي، اعني بشئون زوجك وشئون والده وجده والبلهاء المسكينة الجالسة في البهو. ولا واجب لأحد عليك غير هؤلاء.»

قصدت أو–لان بقولها الأخير لوتس، التي لم تتحدث إليها قط. ثم نسيتهم جميعًا، ورقدت تُتمتِم. فصرفهما وانج لنج وجلس إلى جانبها وهي تنام وتصحو، واهتم بما يلزمها. وبينما هو ينظر إليها فتحت عينيها واسعتين وحملقت فيه جدًّا، ثم حملقت فيه ثانية كما لو كانت تريد أن تعرف مَن هو. وفجأة ارتمى رأسها على الوسادة المستديرة، ولفظت آخر أنفاسها.

ما إن فارقت أو–لان الحياة حتى لاح لوانج لنج أنه لا يستطيع احتمال البقاء إلى جانبها. ولكي يهدئ من روعه، شغل نفسه بالذهاب إلى المدينة واستدعاء رجال لإقفال النعش. وقد وجد أن أول يوم طيب يلائم الدفن هو بعد ثلاثة أشهر منذ ذلك اليوم. وعلى هذا ذهب إلى المعبد وساوم رئيس الكهنة على استئجار مكان يضع فيه النعش مدة ثلاثة أشهر.

اشترى وانج لنج ملابس الحِداد له ولأولاده، كما صنع لهم أحذية من المنسوج الأبيض، الذي هو لون الحداد، ووضعوا حول مفاصل أقدامهم شرائط بيضاء، وربطت نساء البيت شعورهن بحبال بيضاء.

يبدو أن الموت إذا دخل منزلًا لا يتركه بسهولة. فقد رقد الرجل العجوز والد وانج لنج في فراشه ذات ليلة لينام. وعندما ذهبت إليه الابنة الثانية في الصباح لتحضر له الشاي، كان راقدًا على سريره، ورأسه متجهًا إلى الخلف ميتًا.

ولولت الفتاة عند رؤية جدها هكذا، وجرَتْ إلى أبيها تصرخ. فجاء وانج لنج ووجد الرجل العجوز على تلك الحال. فغسَّله بنفسه، ووضعه برفق داخل النعش الذي اشتراه له، وأقفله، وقال: «في يوم واحد سندفن اللذَين ماتَا من بيتنا، وسأنتقي قطعة أرض طيبة من رابيتي وأدفنهما فيها معًا. وعندما أموت أنا، سأرقد هناك أيضًا.»

فعل وانج لنج ما اعتزم فعله. فعندما أقفل نعش الرجل العجوز، وضعه على مقعدَين في الحجرة الوسطى حيث بقي حتى حان يوم الدفن.

وعندما جاء ذلك اليوم في ربيع تلك السنة، استدعى وانج لنج كهنة من المعبد. فأخذ هؤلاء الكهنة يقرعون الطبول ويرتلون طول الليل كله من أجل مَن ماتَا.

عندما طلع النهار، وبعد أن انتهى الكهنة من ليلة الترتيل، لبس وانج لنج ثوبًا أبيض من الخيش. وأعطى ثوبًا مماثلًا لعمه وابن عمه وثوبًا لكل ولد من أولاده ولزوجة ابنه ولابنتيه. وطلب هوادج من المدينة لتحملهم. وعلى ذلك ركب لأول مرة في حياته على أكتاف الرجال. وهكذا ساروا به خلف نعش أو-لان. أما وراء نعش والده، فركب عمه في المقدمة. وحتى لوتس، التي لم تستطع الظهور أمام أو-لان في مدة حياتها، ركبت هودجًا خلفها وقتئذٍ، لتظهر للناس أنها تقوم بالواجب نحو قرينة زوجها الأولى.

أخذوا يبكون ويصيحون بصوت مرتفع، وهم في طريقهم إلى المقابر، يتبعهم تشنج والعمال سيرًا على الأقدام، وقد لبسوا أحذية بيضاء، لم يبكِ تشنج بصوت عالٍ كما كان يفعل الآخرون، ولم تكن في عينيه دموع.

بعد أن واروهما التراب، وسويت الأرض فوق القبرين، عاد وانج لنج صامتًا وقد صرف الهودج، ورجع إلى المنزل وحده. ومن بين جميع أحزانه أمضَّته فكرة واحدة. كان يتمنى أن لم يأخذ اللؤلؤتين من أو-لان يوم أن كانت تغسل ملابسه عند البِركة. وكان لا يطيق رؤية لوتس وهي تلبسهما بعد ذلك في أذنيها.

رجع وانج لنج محزون الفؤاد وهو يفكر هكذا، وقال لنفسه: «لقد دُفِن في أرضي أول نصف طيب من حياتي، بل وأكثر.» وفجأة ذرفت عيناه الدموع فترة قصيرة، ثم جفف عينيه بظهر يده كما يفعل الأطفال.

الباب السابع والعشرون

نادرًا ما كان وانج لنج يفكر في محاصيله طيلة كل ذلك الوقت، إذ كان مشغولًا بولائم العرس وبالجنازة. بيد أن تشنج أتاه ذات يوم، وقال: «بما أن الأفراح والأحزان قد انتهت، فلديَّ ما أريد أن أُفضي به إليك فيما يختص بالأرض.»

قال: «هاتِ ما عندك، إذن. لم يخطر ببالي هذين اليومين، ما إذا كنت أملك أرضًا أو لا أملك، إلا لأدفن فيها الموتى.»

صمت تشنج بضع دقائق احترامًا لوانج لنج وهو يتكلم، ثم قال في رقة: «أرجو أن يمنع الله ما سيحدث. ولكن يبدو أنه سيكون هناك فيضان، في هذا العام، لم يسبق له مثيل. إذ ترتفع المياه فوق الأرض رغم أن الصيف لم يأتِ بعد، ولا يزال الوقت مبكرًا جدًّا ليحدث مثل هذا.»

خرج وانج لنج إلى أرضه، فرأى أن الأمر كما قال تشنج. فكل الأرض المجاورة للخندق تغطيها المياه التي نشعت من أسفل، حتى إن القمح الجيد النامي بهذه الأرض، قد أصابه المرض واصفرَّ.

كان الخندق أشبه ببحيرة. وكانت القنوات أنهارًا، حتى ليستطيع الأبله أن يدرك من تلك الحال، ولم تأتِ أمطار الصيف بعد، أنه سيحدث فيضان عظيم في تلك السنة. بعد ذلك أخذ وانج لنج يجري في أرضه، في هذه الناحية وفي تلك، يتبعه تشنج كظله صامتًا. وكان وانج لنج ينظر إلى القنوات وقد امتلأت بالماء حتى حافة شواطئها.

بعد ذلك بدأ النهر يحطم السدود، واحدًا بعد آخر، حتى صار من المتعذِّر أن يعرف الإنسان موضع أي سد في تلك المنطقة كلها. وارتفع الماء في النهر حتى انبعج مجراه وطغى فوق كل الأراضي الزراعية كالبحر، وصار القمح والأرز الصغير في قاع ذلك البحر.

تحولت القرى، واحدة بعد أخرى، إلى جزر. وكان الناس يشاهدون الماء وهو يرتفع، حتى إذا صار على مسافة قدمين من أبوابهم، ربطوا المناضد والأسِرَّة معًا، ووضعوا عليها أبواب منازلهم ليجعلوا منها أطوافًا. ثم كوَّموا فوقها كل ما أمكنهم من فراشهم وملابسهم ونسائهم وأطفالهم. ثم ارتفعت المياه داخل البيوت المصنوعة من اللبِن، وبللت الحوائط وحولتها إلى طين، وفصلتها من بعضها، فتداعت وذابت في الماء، وصارت كأن لم تكن بالأمس.

جلس وانج لنج في مدخل داره، وسرح ببصره فوق المياه التي كانت لا تزال بعيدة جدًّا عن منزله، الذي بُني فوق تل عريض مرتفع. ولكنه رأى المياه تغطي أرضه. فأخذ يراقبها لئلا تغطي القبرين الحديثي البناء. ولكنها لم تصل إليهما رغم أن أمواج المياه الصفراء كانت ترتطم جائعة حول الأموات.

لم يكن هناك حصاد من أي نوع في تلك السنة. وجاع الناس جميعًا وغضبوا مما حاق بهم للمرة الثانية. فرحل بعضهم إلى الجنوب، وانضم البعض الآخر الجريء الغاضب الذي لم يكن يهتم لما يفعله، إلى عصابات اللصوص المنتشرة في كل مكان بالريف.

رأى وانج لنج أن الأرض سيصيبها قحط لم يعهد مثله، إذ لم تهبط المياه في موعد زراعة القمح للشتاء. وأنه لن يحصد محصولًا ما في السنة القادمة.

لم يسمح وانج لنج بشراء أو بيع أي شيء بعد مجيء الشتاء، إلا ما قال عنه. واحتفظ جيدًا بكل ما لديهم. وفي كل يوم، كان يعطي زوجة ابنه ما يحتاجه البيت من طعام في ذلك اليوم. ويعطي تشنج ما يلزم للعمال، ولو أنه آلمه كثيرًا أن يُطعم رجالًا لا يقومون بعملٍ ما. فما إن جاء برد الشتاء وتجمدت المياه حتى أمر الرجال بالذهاب إلى الجنوب ليتسوَّلوا أو يشتغلوا هناك حتى يأتي الربيع. وعندئذٍ يمكنهم أن يرجعوا إليه. أما لوتس، فكان يعطيها وحدها السكر والزيت، لأنها لم تتعود شظف العيش.

لم يكن وانج لنج حينئذٍ فقيرًا كما كان يريد أن يظهر أمام الناس، إذ كانت لديه نقود فضية، وبعض النقود الذهبية، مخبأة في جرة مدفونة بقاع البحيرة في أقرب حقوله. كما كان عنده حبوب من السنة الماضية لم يبِعها في السوق، ولم يكن بيته عرضة لخطر المجاعة.

أما في كل مكان حوله، فأناس يتضورون جوعًا. فذكَّره هذا بصياح الجائعين عند باب المنزل العظيم وهو يمرُّ من هناك ذات مرة. وعلم أن كثيرًا من القوم يمقتونه لأنه لا يزال يجد ما يأكله وما يطعم به أولاده. ولذلك أقفل أبوابه باستمرار. ولكنه كان يعلم حق العلم، أن هذا الاحتياط لا يمكن أن يحفظه من اللصوص في ذلك الوقت، إن لم يكن

إكرامًا لخاطر عمه. ولذا كان يبالغ في توقير عمه وابنه وزوجة عمه. وكان أولئك الثلاثة كالضيوف في بيته.

رأى وانج لنج، أنه على الرغم من أن عمه نفسه قد شاخ وصار خاملًا ومهملًا. ولا يتعب نفسه بالشكوى إذا ما تُرك وشأنه، فإن الشاب الصغير وأمه أقلقاه. وذات ليلة بينما كان وانج لنج واقفًا عند الباب، إذ سمعهما يقولان للرجل العجوز: «إن لديه المال والطعام، فلنطلب منه نقودًا فضية.» وقالت المرأة: «لن نكفَّ عنه مرة ثانية كما فعلنا، لأنه يعرف لولا أنك عمه لسُرِق وأصبح منزله خرائب، لأنك نائب رئيس عصابة ذوي اللحى الحمراء.»

لما كان وانج لنج هناك، وسمع خلسة هذا القول، غضب غضبًا شديدًا، وكادت بشرته تنفجر غيظًا. ولكنه صمت وحاول أن يدبر خطة إزاء هؤلاء الثلاثة. ولكنه لم يستطع التفكير في شيء. وفي اليوم التالي جاء عمه يطلب منه نقودًا. ولم يمضِ يومان حتى جاءه ثانية، وثالثة ليطلب النقود. وأخيرًا، صاح وانج لنج، قائلًا: «وهل لنا أن نموت جوعًا بعد فترة وجيزة.»

فضحك عمه، وقال بعدم اكتراث: «إنك تحت سماء طيبة ترعاك. هناك أناس أقل منك ثراء شنقوا معلقين في سقوف منازلهم المحترقة!»

عندما سمع وانج لنج هذا، تصبب منه عرق بارد، وأعطاه الفضة دون أن ينطق بكلمة واحدة. وهكذا رغم اضطرار أهل البيت ألا يأكلوا اللحم، كان هؤلاء الثلاثة يأكلون لحمًا. ورغم أنه قلما كان وانج لنج نفسه يذوق طعم التبغ، كان عمه دائم التدخين في غليونه.

نادرًا ما كان ابن وانج لنج الأكبر، منذ زواجه، يدري بما يحدث، غير أن يخفي زوجته غيرةً عليها من نظرات ابن عمه، حتى إن هذَين الشابَّين لم يعودَا صديقَين وإنما أصبحَا عدوَّين. وقلما كان وانج لنج يترك زوجته تغادر حجرتها إلا في الأمسيات التي يخرج فيها ذلك الشاب مع والده. ولكنه ما إن علم بما يفعله أولئك الثلاثة مع والده، حتى استشاط غضبًا، وقال: «إذا كنتَ تهتم بشئون هؤلاء النمور الثلاثة، أكثر من اهتمامك بشئون ابنك وزوجته، التي هي أم أحفادك، فهذا أمر غريب، والأفضل لنا، عندئذٍ، أن نقيم في منزل آخر.»

أخبر وانج لنج ابنه، في صراحة، بما لم يخبر به أحدًا غيره، فقال: «إنني لأمقت أولئك الثلاثة أكثر مما أمقت حياتي. وإذا اهتديت إلى طريقة للتخلص منهم، لجأت إليها. فإن عمك رئيس عصابة من اللصوص المتوحشين، وطالما نحن نطعمه وندلله، فنحن آمنون.»

عندما سمع الابن الأكبر بهذا، شَخَصَ ببصره. وعندما فكر فيه برهة، غضب غضبًا لم يعهده من قبل، وقال: «أما من طريقة للتخلص منهم؟ هيَّا بنا نقذفهم في الماء ليلًا.»

بيد أن وانج لنج لا يستطيع أن يقتل، وإلا لقَتَل عمه أفضل مما يقتل ثوره. لا يمكنه أن يُقدِم على القتل، حتى في حالة الكراهية. فقال: «كلا، حتى إذا كان في مقدوري أن أفعل هذا، فلن أفعله؛ فماذا نعمل عندما يعلم به اللصوص الآخرون؟ وإننا لآمنون طالما هو حي.»

صمت الأب والابن بعد ذلك، وكل منهما يقدح ذهنه يفكر فيما يجب عمله. وأخيرًا تكلم وانج لنج بصوت عالٍ، وهو يفكر، قائلًا: «إن كانت ثمة طريقة للاحتفاظ بهم هنا دون أن يزعجونا، كانت عين ما نبغي، ولكن لا يوجد سحر له هذا المفعول!»

فصاح الشاب يقول: «إذن فقد أخبرتني بما أفعل! فلنشترِ لهم أفيونًا يبهجهم، ونزيدهم من هذا الأفيون، ونمدهم بكل رغبتهم منه كما يفعل الأغنياء.»

بَيْد أنه طالما لم يفكر وانج لنج في هذا الأمر بنفسه أولًا، فإنه يرتاب فيه.

فقال ببطء: «إنه يكلفنا كثيرًا. إذ أن الأفيون كاليشم، غالي الثمن.»

فعارضه الشاب بقوله: «وإن الاحتفاظ بهم على هذا النحو لأغلى من اليشم. وعلاوة على ذلك فإن هذا الشاب يضايقنا بالنظر إلى زوجتي.»

لم يوافق وانج لنج في الحال، إذ لم يكن القيام بهذا أمرًا يسيرًا. وإن تنفيذه ليكلفه كيسًا من الفضة.

من المشكوك فيه أن يُعمل شيء ما، إن لم يكن قد حدث شيء بالفعل.

وهذا الشيء هو أن ابن عم وانج لنج نظر إلى ابنة وانج لنج الثانية، التي كانت ابنة عمه وكأخته. كانت هذه الابنة الثانية رائعة الجمال، ذات بشرة زاهية كأزهار اللوز، وأنف صغير، وشفتَين رفيعتَين حمراوَين، وقدمَين صغيرتَين.

أمسك ابن عم وانج لنج بهذه الفتاة، في إحدى الليالي وهي تجتاز البهو وحدها، في طريقها إلى المطبخ. فصرخت، فجرى إليها وانج لنج، وضرب الشاب على رأسه، فضحك هذا عاليًا، وقال: «لا يعدو هذا أن يكون محض مداعبة. أوليست هي أختي؟» ولكن وانج لنج جذب الفتاة وأرسلها إلى حجرتها.

في تلك الليلة أخبر وانج لنج ابنه بما حدث، فقال الابن: «يجب أن نرسل الفتاة إلى منزل خطيبها بالمدينة.»

ذهب وانج لنج في اليوم التالي إلى منزل التاجر بالمدينة، وقال له: «لقد بلغت ابنتي الثالثة عشرة من عمرها، ولم تَعُد طفلة بعد، وهي يانعة للزواج. وقد ماتت أمها، وإنها

لَجميلة، والمنزل يعج بهذا وذاك، ولا يمكنني مراقبتها طول الوقت. وبما أنها ستكون من أسرتك، فأرى أن تمكث هنا.»

كان التاجر رجلًا طيبًا، فأجابه بقوله: «حسنًا، فلتأتِ الفتاة، وسأتحدث إلى أم ولدي، فيمكنها أن تأتي وتكون بمأمنٍ هنا في الأبهاء مع حماتها. وبعد المحصول القادم، يمكن أن تتزوج.»

هكذا سُوِّيت هذه المسألة، واطمأن وانج لنج غاية الاطمئنان، وانصرف.

في طريق عودته إلى باب سور المدينة حيث كان تشنج ينتظره بقارب، مرَّ بحانوت يبيع التبغ والأفيون. فدخل ليشتري لنفسه بعضًا من التبغ المغري ليملأ به غليونه في المساء. وبينما كان البائع يضع التبغ في الميزان، قال له وانج لنج في رغبة فاترة: «ما سعر الأفيون لديكم إن كان عندكم منه؟»

فقال البائع: «لا يصرح القانون، في هذه الأيام ببيع الأفيون في الدكاكين. ونحن لا نبيعه علنًا. ولكن إذا كنت ترغب في شراء شيء منه ولديك الفضة، فإننا نَزِنُه في الحجرة الخلفية. الأوقية بقطعة فضية.»

لم يفكر وانج لنج أكثر من هذا، وقال بسرعة: «سآخذ منه ست أوقيات.»

الباب الثامن والعشرون

قال وانج لنج لعمه، ذات يوم:

«بما أنك شقيق والدي، فهاك قليلًا من التبغ، من صنف أرقى مما تدخنه.»

أخذ عمه التبغ بجشع، إذ كانت رائحته حلوة، واشترى غليونًا، وأخذ يدخن فيه الأفيون، راقدًا طول اليوم على سريره وهو يدخن. وأكثر وانج لونج منه لعمه وزوجة عمه وابنهما. ولم يبخل على شرائه بالنقود، لأنه جلب له راحة البال.

لما اقترب الشتاء، وبدأت المياه تهبط، حتى استطاع وانج لنج أن يخرج إلى أرضه ويسير فيها، حدث أن تبعه ابنه الأكبر ذات يوم وقال له مزهوًا: «سرعان ما سيكون بالمنزل فم آخر، وهو فم حفيدك.»

فرك وانج لنج يديه فرحًا، وقال: «يا له من يوم سعيد حقًّا!»

طيلة الربيع، كان وانج لنج على علم بالولادة التي ستحدث لراحته.

ولما تقدم الربيع ودخل في الصيف، رجع الناس الذين كانوا قد رحلوا، منهوكين ومتعبين من الشتاء، وفرحين بعودتهم، رغم أن منازلهم قد اندثرت وبقي في مكانها طين أصفر ليس غير. بَيْد أنه يمكن بناء تلك البيوت من جديد من هذا الطين. وجاء كثيرون إلى وانج لنج ليقترضوا منه نقودًا. فكان الضمان الذي يطلبه دائمًا هو الأرض. وإذا لم يستطع بعضهم اقتراض نقود، باعوا أرضهم.

بيد أن هناك بعضًا منهم لم يبع أرضه، وإنما باع، بدلًا منها، بناته. فجاء بعضهم إلى وانج لنج ليبيعوه البنات، إذ شاع بينهم أنه ثري وذو نفوذ وطيب القلب.

اشترى وانج لنج خمس إماء في يوم واحد، إذ كان غنيًّا بدرجة تجعله يقرر ما يريده، في سرعة.

بعد ذلك بعدة أيام، جاءه رجل يحمل طفلة صغيرة رقيقة، سنها حوالي سبع سنوات، يريد أن يبيعها. وفي بادئ الأمر رفض وانج لنج أن يشتريها إذ كانت صغيرة وضعيفة. ولكن لوتس رأتها وأعجبت بها، فقالت: «سآخذ هذه الطفلة لأنها جميلة.»

نظر وانج لنج إلى الطفلة، وأبصر عينيها الجميلتين الخائفتين، وهزالها، وقال يداعب لوتس من جهة، ومن جهة أخرى ليطعم الطفلة ويسمنها: «حسنًا. ليكن كذلك ما دمت ترغبين فيها.»

وعلى ذلك اشترى الطفلة بعشرين قطعة فضية، فعاشت في الأبهاء الداخلية. وكانت تنام عند قدمي السرير الذي تنام فوقه لوتس.

بدا لوانج لنج أن في مكنته أن يحظى بالهدوء في بيته، فلما أقبل الصيف، ولزم بذر الأرض، شرع يسير في كل ناحية، وينظر إلى كل قطعة من الأرض. وكان يصحب معه ابنه الأصغر الذي سيخلفه في مباشرة الأرض، أينما ذهب، وذلك حتى يتعلم الصبي أمور الزراعة. وكان الغلام يسير مطأطئ الرأس تتجلى في وجهه أمارات الكآبة. وما من أحد كان يعرف فيمَ يفكر.

لم يستقر الهدوء في بيت وانج لنج بسبب ابن عمه وابنه الأكبر.

عندما عاد وانج لنج من الحقول مع ابنه الأصغر، قابله ابنه الأكبر وانتحى به ناحية، وقال له: «لا أريد ابن عمي هذا في المنزل بعد ذلك، لأنه يسترق النظرات، ويتسكع من ناحية إلى أخرى، ويثبِّت عينيه على الإماء.»

فقال وانج لنج: «أما يرتاح بالي أبدًا من هذه المتاعب بين الذكور والإناث في بيتي؟» وبعد فترة صمت صاح: «وماذا تريد أن أفعل؟»

فأجاب الشاب على الفور: «أود أن نترك هذا البيت، ونعيش في المدينة. تاركين عمي وزوجته وابنه هنا. أما نحن فنعيش في المدينة آمنين وراء أبواب سورها.»

ضحك وانج لنج في حسرة عندما قال ابنه هذا.

ثم قال: «هذا بيتي. ويمكنك أن تعيش فيه أو لا تعيش.» ونهض، وبصق على الأرض، سالكًا سلوك الفلاحين، رغم أنه كان فخورًا بابنه في دخيلة نفسه.

أما الابن الأكبر فلم يكن على استعداد للخضوع. فتابع والده بقوله: «هناك البيت العظيم لأسرة هوانج. يزخر جزؤه الأمامي بعامة الشعب، أما الأبهاء الداخلية فمقفلة وهادئة. وفي استطاعتنا أن نستأجرها ونعيش هناك في سلام.» وذرفت عيناه الدموع، فلم يمسحها.

لا يعرف وانج لنج ما إذا كانت الدموع وحدها هي التي حركت قلبه. ولكنه تأثر بكلام ابنه عندما قال: «البيت العظيم لأسرة هوانج.»

لم ينسَ وانج لنج أبدًا أنه ذهب إلى ذلك البيت العظيم، ووقف خجلان في حضرة مَن كانوا يعيشون فيه. ووثبت الفكرة في ذهنه، فقال في نفسه: «أستطيع أن أجلس على المقعد الذي كانت تجلس فوقه السيدة العجوز.»

لم يرد على ابنه بشيء، بل أخذ يحلم بما يمكنه أن يفعل لو وافق. ومع ذلك فكان مستاءً من بطالة ابن عمه، ورأى أنه حقيقة ينظر إلى الفتيات، فتمتم قائلًا: «لا أستطيع الحياة في بيتي مع هذا الكلب.»

نظر وانج لنج إلى عمه، ثم نظر إلى زوجة عمه، وكانا مغتبطَين بالأفيون، ونعسانَين. وصارَا الآن مصدر قليل من المتاعب، وقد فعل الأفيون ما أراده منه وانج لنج.

عندما ذهب وانج لنج إلى المدينة، في أحد الأيام، ليقابل ابنه الثاني في سوق الغلال، سأله: «ماذا ترى، يا ثاني بَنيَّ فيما يريده أخوك الأكبر، من أن ننتقل إلى المدينة، إلى البيت العظيم، إذا استطعنا أن نستأجر جزءًا منه؟»

كان الابن الثاني قد بلغ وقتئذٍ مبالغ الرجال، رغم صغر جسمه، وبشرته الصفراء، وعينَيه الخبيثتَين، فأجاب قائلًا: «إنها لفكرة رائعة، وتوافقني كثيرًا، إذ عندئذٍ أستطيع أن أتزوج وأعيش مع زوجتي هناك، ونكون جميعًا تحت سقف واحد كأسرة عظيمة.»

لم يكن وانج لنج، حتى ذلك الوقت، قد فعل شيئًا نحو زواج هذا الابن، إذ كانت لديه مشاغل أخرى كثيرة. وعندئذٍ قال في خجل: «لقد حدَّثت نفسي منذ زمن طويل بأنك يجب أن تتزوج. ولكني لم أجد الوقت اللازم لذلك، إذ كان يشغلني هذا المشكل وذاك. أما الآن، فلا بد من تنفيذ هذا الأمر.»

عندئذٍ قال الابن الثاني: «حسنًا، إذن فسأتزوج؛ لأنه شيء حميد وخليق بالرجل أن ينجب البنين. ولكن لا تحضر لي زوجة من بيت بالمدينة مثل زوجة أخي. لأنها ستتحدث باستمرار عما كان في بيت أبيها، وتضطرني إلى إنفاق النقود، الأمر الذي يثير حنقي.»

سمع وانج لنج هذا مستغربًا، لأنه لم يعلم أن زوجة ابنه على هذا النحو، بل كان يرى فقط أنها امرأة تحرص على عدم وجود عيب في مسلكها، وأن تكون جميلة في منظرها. ولاح له ما قاله ابنه، هو عين الحكمة. فنظر إلى الشاب، ابنه الثاني، ولاحظ حركاته الرتيبة، وعينَيه الثابتتَين الكتومتَين، وقال: «أي نوع من الفتيات تريد إذن؟»

فأجاب الشاب كما لو كان قد صمم هذا الأمر من قبل، فقال: «أريد فتاة من الريف، من أسرة طيبة، تملك أرضًا، وليس لها أقارب فقراء. فتاة تُحضر لي معها بائنة طيبة، ليست بسيطة المنظر، ولا جميلة، وماهرة في الطهي. أريد مثل هذه الفتاة.»

دهش وانج لنج عندما سمع هذا الكلام. ومع ذلك فقد أُعجب بحكمة ابنه، وقال ضاحكًا: «حسنًا، سأبحث عن مثل هذه الفتاة، وسيفتش عنها تشنج في القرى.»

انصرف وانج لنج وهو لا يزال يضحك، وسار في الشارع المؤدي إلى البيت العظيم. ولما لم يكن هناك مَن يوقفه، دخل فرأى الأبهاء الأمامية ملأى بالناس الذين يؤمُّون أبهاء العظماء بعد أن يرحل عنها أولئك العظماء.

لو كان في قديم الزمان لأحس وانج لنج بأنه واحد من أولئك العامة. أما الآن وقد صار يملك الذهب والفضة مخبَّئين في مكان أمين، فقد احتقرهم وغدا ضدهم، كما لو كان هو نفسه ينتمي إلى ذلك البيت العظيم.

عندما دخل البهو الداخلي أبصر سيدة عجوزًا نائمة. ولما نظر إليها خطر بباله كم سنة مضت منذ أن كان شابًّا، وحضر بابنه البكريِّ على ذراعيه. وشعر وانج لنج لأول مرة بأن سنه تتقدم به.

قال للسيدة العجوز في نوع من الكآبة: «استيقظي وافتحي لي الباب.»

استيقظت المرأة مذعورة، وقامت تدعك في عينيها، وقالت: «غير مسموح لي بأن أفتح الباب إلا لَمَن يستأجر الأبهاء الداخلية كلها.»

فقال وانج لنج فجأة: «حسنًا، سأفعل هذا إن أعجبني المكان.»

سار وانج لنج خلف السيدة، وكان يتذكر الطريق جيدًا. وكانت الأبهاء ساكنة هادئة. وظل يتبعها حتى وصل إلى البهو العظيم نفسه. وطوى السنين القهقرى في ذهنه بسرعة، وتذكر يوم أن وقف هناك ينتظر، ليتزوج عبدة من ذلك البيت. وتقدم إلى الأمام، وجلس حيث كانت تجلس السيدة العجوز في ثيابها الساتينية المفضضة. وملأت قلبه غبطة كان يتوق إليها طول حياته، فقال بغتة: «سآخذ هذا البيت!»

الباب التاسع والعشرون

في ذلك الوقت، كان وانج لنج إذا قرر شيئًا لا ينفذه بسرعة. وعلى هذا طلب من ابنه الأكبر أن يرتب المسألة. وأرسل لابنه الثاني لكي يأتي ويساعد في نقل الأثاث. وبعد أن أعد كل شيء، انتقلوا إلى المدينة. أولًا لوتس وكوكو وعبيدهما وأمتعتهما. ثم ابن وانج لنج الأكبر وزوجته وخدمهما والعبيد.

أما وانج لنج نفسه فلم ينتقل معهم سريعًا. وبقي معه ابنه الأصغر. وعندما حانت ساعة مغادرته الأرض التي وُلد فيها، لم ينتقل بسهولة، وقال لأولاده عندما أخذوا يحثونه على الانتقال: «أعِدُّوا لي بهوًا أستعمله وحدي. وسأحضر عندما نعثر على الفتاة التي ستتزوج ابني الثاني.»

لم يبقَ بالمنزل، إذن، إلا العم وزوجته وابنه، وتشنج والعمال، علاوة على وانج لنج وابنه الأصغر والبلهاء.

نام وانج لنج مستريحًا إذ أحس بالتعب فجأة، وكان البيت هادئًا. وكان ابنه الأصغر غلامًا ساكنًا، يبتعد دائمًا عن طريق والده.

وأخيرًا نشَّط وانج لنج نفسه، فأمر تشنج بأن يفتش عن فتاة تتزوج ابنه الثاني. فلما سمع تشنج ما أمره به وانج لنج، استحم وارتدى معطفه القطني الأزرق الجيد، وطفق يذهب إلى هذه القرية وتلك، وأخيرًا رجع يقول: «هناك فتاة في قرية تبعد عنا بثلاث قرى. فتاة حذرة طيبة، لا عيب فيها إلا ضحكتها الحاضرة، ويرغب والدها في تزويجها، والبائنة طيبة في هذه الأيام. كما أنه يملك أرضًا.»

لاح لوانج لنج أن هذه الفتاة مناسبة جدًّا، ولما جاءت الأوراق، وقَّع عليها بخاتمه، وقال: «يبقى أمامي ولد واحد، ثم أنتهي من كل هذه الزيجات. ويسرني أنني قريب جدًّا من الراحة والسكينة.»

عندما تمَّ كل شيء وحدد يوم الزفاف، استراح وانج لنج وجلس في الشمس، ونام كما كان يفعل والده من قبل.

لما رأى وانج لنج أن تشنج قد تقدمت به السن وضعف، وأنه هو نفسه قد صار ثقيلًا في حركاته وكثير النعاس بسبب طعامه وسِنِّه، وأن ابنه الثالث لا يزال صغيرًا، وجد من الأوفق أن يؤجر بعض حقوله البعيدة لغيره من القرويين. فجاء إليه كثيرون من القرى المجاورة ليستأجروا أرضه ويكونوا مستأجرين لديه. فاتفق على شروط التأجير، بأن يأخذ وانج لنج نصف المحصول، ويأخذ المستأجر النصف الآخر.

ولما لم تكن هناك حاجة إلى وجوده بالقرية كما كانت من قبل، فكان يذهب أحيانًا إلى المدينة وينام في الجناح الذي أُعِد له. فإذا أتى وقت الحصاد، ذهب إلى القرية وشم رائحة الحقول اليانعة وابتهج بها.

يبدو أن الآلهة أشفقت عليه مرة فمنحته راحة البال بسبب كِبر سنه. فإن ابن عمه الذي كان دائم الشغب بالمنزل، سمع عن نشوب حرب في الشمال، فقال لوانج لنج: «يقال إن هناك حربًا في الشمال منَّا. سأذهب وأنضم إليها إن أعطيتني فضة أشتري بها ملابس أخرى وفراشًا وبندقية أجنبية أحملها على كتفي.»

أعطاه وانج لنج الفضة في الحال، وقال لنفسه: «هذا حسن، فلربما يُقتل؛ لأن كثيرين يموتون في الحرب أحيانًا.»

إذن فقد ابتهج نفسًا، ولو أنه كان يخفي بهجته، وأخذ يهوِّن الأمر على زوجة عمه عندما بكت قليلًا لما سمعت بذهاب ابنها إلى الحرب.

وأخيرًا حصل وانج لنج على السكينة إذ لم يبقَ هناك غير عجوزَين نعسانَين بالمنزل الريفي. أما في منزل المدينة فاقترب موعد ولادة حفيد وانج لنج.

لما دنت ساعة الولادة هذه، كان وانج لنج يمكث أوقاتًا أكثر في منزل المدينة، يتأمل فيما حدث، وأنه يسكن هو وزوجته وأولاده وزوجات أولاده في هذا المنزل الذي كانت تعيش فيه أسرة هوانج العظيمة. والآن سيولد فيه طفل من الجيل الثالث.

ملأت الغبطة قلب وانج لنج حتى انتفخ فرحًا، ولم يعزَّ نقوده على شراء أي شيء. وصمم على أن يأكل الأطعمة الفاخرة، وذاق جميع الأشياء التي يأكلها الأغنياء كما أكل منها أولاده ولوتس أيضًا. ولما رأت كوكو كل ما آل إليه أمرهم، ضحكت وقالت: «هذا أشبه بالأيام الماضية عندما كنت في هذه الأبهاء.»

ظل وانج لنج ينتظر قدوم حفيده، وهو جالس لا يقوم بأي عمل. وذات صباح ذهب إلى أبهاء ابنه الأكبر، فقابله ابنه وهو يقول: «حانت الساعة، ولكن كوكو تقول إن الوقت سيطول.»

عاد وانج لنج إلى بهوه الخاص وجلس. ولأول مرة في سنوات عدة تملَّكه الخوف وأحس بالحاجة إلى معونة إله ما فنهض وذهب إلى حانوت البخور، واشترى بعض البخور واتجه إلى معبد المدينة ليحرق البخور أمام ربة الرحمة.

وبينما وانج لنج يراقب الكاهن وهو يضع عيدان البخور في الرماد، قال في ذهنه فجأة والرعب يتملكه: «وماذا إذا لم يكن حفيدًا، بل طفلة!» فصاح يقول بسرعة: «إذا كان حفيدًا دفعت ثمن ثوب جديد أحمر للربة، وإن كانت بنتًا لم أدفع شيئًا!»

وبسبب عدم تفكيره في هذا من قبل، خرج واشترى مزيدًا من البخور رغم أن اليوم كان قائظًا ومُتربًا. وذهب إلى معبد الريف الصغير الذي فيه الربان المشرفان على الحقول والأرض، وغرس البخور في الرماد وأوقده، ثم تمتم يقول للربين: «لقد اعتنينا بكما؛ والدي وأنا وابني، فإذا لم يكن المولود ابنًا فلا شيء لكما بعد ذلك!»

وأخيرًا بدا له أن الوقت سرعان ما سيكون ليلًا، وقد انتظر طويلًا. ودخلت لوتس تستند إلى كوكو، لثقل جسمها وصغر قدميها، وضحكت وقالت بصوت عالٍ:

«حسنًا، لقد جاء ابن في هذا البيت لابنك، رأيت الطفل، وإنه لجميل وصحيح الجسم.»

فضحك وانج لنج أيضًا، وقال: «كنت جالسًا هنا كرجل ينتظر مجيء ابنه البكريِّ، ويخاف من كل شيء.»

ولما عادت لوتس إلى حجرتها، جلس ثانيةً، وفكر في نفسه يقول: «لم يعترِني هذا الخوف عندما ولدت زوجتي الأخرى أول مولودها، ابني.» وجلس صامتًا، وتذكر في مخيلته ذلك اليوم الذي ذهبت فيه وحدها إلى الحجرة المظلمة الصغيرة، وولدت وحدها الأبناء ثم الأبناء والبنات. وكانت تلدهم في سكون. وكيف أنها كانت ترجع بعد الولادة وتشتغل ثانية إلى جانبه. ويبدو له أن ذلك كان منذ عهد طويل.

عندما صار عمر الطفل شهرًا، أَوْلَم ابن وانج لنج وليمة الولادة، فدعا إليها عظماء المدينة. وصبغ عدة مئات من بيض الدجاج باللون الأحمر الدموي، وقدم منها لكل مدعو، وأقام لهم وليمة وعمَّ الفرح جميع أرجاء البيت. وعندئذٍ تذكر وانج لنج الثوب الأحمر الذي نذره لربة الرحمة. وعلى هذا ذهب إلى المعبد ودفع ثمنه.

وبينما هو عائد إلى البيت، أقبل شخص يجري من حقول الحصاد ليخبره بأن تشنج راقد يموت فجأة، وطلب أن يأتي إليه وانج لنج ليراه وهو يموت.

كان طعام الظهر معدًّا لوانج لنج على المائدة، ولكن بالرغم من ذلك، ورغم أن لوتس نادته كي ينتظر حتى تأتي شمس المساء، فإنه ذهب إليه. فأرسلت لوتس وراءه عبدة تحمل مظلة من الورق المطلي بالزيت. بَيْد أنه كان يجري بسرعة حتى إن العبدة كانت تجد مشقة بالغة في الاحتفاظ بالمظلة فوق رأسه.

بالمظلة فوق رأسه.

ذهب وانج لنج من فوره إلى الحجرة التي وُضِع فيها تشنج، فجلس إلى جانبه، وأمسك بيده، وانحنى فوقه وقال في أذنه بصوت مرتفع: «ها أنا ذا قد جئت، وسأشتري لك نعشًا لا يفوقه إلا نعش والدي فقط!»

إذا كان تشنج قد سمع وانج لنج، فإنه لم يُبدِ أية إشارة. وإنما كان يلهث وهو يحتضر حتى مات وهو على تلك الحال.

عندما لفظ تشنج نفسه الأخير، انحنى فوقه وانج لنج وبكى بكاءه على موت والده. وطلب نعشًا من أجود نوع، واستأجر كهنة للجنازة، وسار خلفه مرتديًا ملابس الحداد البيضاء. وإمعانًا في الحزن، جعل ابنه الأكبر يضع شريطًا أبيض حول مفصلَي قدميه، كما لو كان الميت أحد أقاربه، رغم أن ابنه تذمر قائلًا: «ما كان إلا رئيس خدم، ولا يليق أن يحزن المرء على خادم بهذه الطريقة.»

لو تُرِكَ وانج لنج يفعل ما يشاء، لدفن تشنج في مقبرة أسرته حيث دفن والده وأو-لان. غير أن أولاده لم يسمحوا له بذلك.

دفن وانج لنج تشنج عند باب السور، وقنع بما فعله، وقال: «هذا عمل صحيح؛ إذ كان يقف دائمًا بيني وبين الشر.» وأمر أولاده بأن يدفنوه، عند موته، في أقرب موضع من تشنج.

بعد ذلك كان وانج لنج لا يذهب لرؤية أرضه إلا لمامًا، أقل من أي وقت مضى، لأن تشنج مات. ولكنه لم يتحدث قط عن بيع قدم واحدة من أية قطعة.

وضع وانج لنج أحد العمال وزوجته وأولاده ليعيشوا في المنزل الريفي ويعنوا بالعجوزَين الحالمَين بالأفيون، ثم قال لابنه الأصغر: «يمكنك أن تأتي معي إلى المدينة، وسأصحب معي بلهائي المسكينة أيضًا. وستعيش معي في البهو الذي أعيش فيه. إن المكان هنا موحش لك، ولا يوجد هنا مَن يعلِّمك شئون الأرض، إذ قد ذهب تشنج.»

وهكذا أخذ وانج لنج معه ابنه الأصغر وبلهاءه، ولم يعد يأتي بعد ذلك إلى البيت القائم في أرضه إلا نادرًا، وبعد مدة طويلة.

الباب الثلاثون

يبدو أنه لم ينقص وانج لنج شيء ما، وصار في مكنته الآن أن يجلس على كرسيه في الشمس بجانب بلهائه. وكان من الممكن أن يسير الأمر على هذا المنوال، لولا أن ابنه الأكبر لم يكن قانعًا قط، بل كان يطلب المزيد دائمًا. فجاءه ذات يوم، يقول: «سيتزوج أخي الأصغر مني بعد ستة شهور، وليس لدينا من الحجرات ما يكفي. أقصد أننا يجب أن نستأجر الأبهاء الخارجية أيضًا. ويجب أن يكون لدينا ما يلائم أسرة لها من الأموال والأراضي مثل ما نملك.»

برِمَ وانج لنج بابنه الأكبر، وضاق ذرعًا، وصاح يقول: «افعل ما يحلو لك، افعل ما يحلو لك .. غاية ما في الأمر، لا تزعجني به!»

ما إن سمع الابن هذا من أبيه حتى خرج مسرعًا لئلا يغيِّر أبوه رأيه. ولما جاء العيد، وقُدِّرت الإيجارات، وجد عامة الشعب أن الإيجارات قد رُفِعَت بنسبة كبيرة، فاضطُروا إلى الانتقال من مساكنهم، وهم يتذمرون ويلعنون؛ لأن الرجل الغني يستطيع أن يفعل ما يريد.

استدعى ابن وانج لنج النجَّارين، وأصلح الحجرات وأعاد بناء البرك، وجمَّل كل شيء بقدر ما يعرف للجمال معنًى.

خرجت النقود التي أُنفِقت في كل ذلك من يد وانج لنج شيئًا فشيئًا، وما كان سيعرف كم من النقود أعطى، لولا أن جاء ابنه الثاني إلى البهو ذات صباح وقال: «أمَا من نهاية، يا أبتاه، لإنفاق كل هذه الأموال؟ وهل نحن في حاجة لأن نعيش في قصر؟»

وجد وانج لنج أن هذَين الأخوَين سيتنازعان بسبب هذا الموضوع، فقال: «كل هذا إكرامًا لحفل زواجك.»

فأجابه الشاب بقوله: «إنه لمن الأمور العجيبة أن يتكلف حفل الزفاف عشرة أضعاف ما تتكلفه العروس، فهذا ميراثنا يُنفَق، لا لشيء سوى فخر أخي الأكبر.»

فقال وانج لنج بسرعة: «سأكلم أخاك، وأُقفل يدي.»

تحدث وانج لنج إلى ابنه الأكبر في ذلك المساء، فقال: «كفى إنفاقًا للفضة، هذا يكفي!»

كان الابن الأكبر على استعداد لأن يطيع أباه الآن؛ إذ كان راضيًا كل الرضا بما عمله في الحجرات وفي الأبهاء، على الأقل حتى ذلك الوقت. ولكنه قال ثانية: «فلنكتفِ بهذا، ولكن هناك شيء آخر؛ إنه لأخي الأصغر الذي هو ابنك؛ فلا يليق أن يشب في جهله هذا المطبق. يجب أن نعلِّمه شيئًا. يمكننا أن نُحضر له مدرسًا ليعلِّمه. ولما كنت أنا موجودًا بالمنزل لأساعدك، وأخي الثاني في تجارته الناجحة، فلندع الصبي يختار ما يريده.»

فقال وانج لنج أخيرًا: «أرسله هنا إليَّ.»

ما هي إلا برهة حتى جاء الابن الثالث ووقف أمام أبيه، فرأى وانج لنج أمامه غلامًا طويلًا نحيل العود لا يشبه أباه ولا أمه إلا في أن له صمت أمه.

فقال وانج لنج: «يقول أخوك أنك ترغب في تعلُّم القراءة. وأظن أن هذا يعني أنك لا تريد أن تعمل في الأرض، وأنه لن يكون عندي ابن يرعى شئون الأرض.»

قال هذا بحسرة. ولكن الصبي لم يرد عليه بشيء. وأخيرًا غضب وانج لنج من صمته وصاح فيه: «لماذا لا تتكلم؟ أحقيقي أنك غير راغب في الإشراف على الأرض؟»

فأجاب الصبي بكلمة واحدة: «نعم.»

فصاح وانج لنج ثانية وقد أحس بأن أبناءه يسيئون إليه: «وماذا يعنيني ما تفعله؟ اغرب من أمام وجهي!»

انصرف الغلام بسرعة، فقال وانج لنج لنفسه إن ابنتَيه لَأفضل من كل أبنائه. ومع ذلك، فقد فعل كما كان يفعل دائمًا بعد ذهاب غضبه؛ أن يترك أولاده يفعلون ما يشاءون. فنادى ابنه الأكبر وقال له: «أحضِر مدرسًا للابن الثالث إذا أراد ذلك.»

ونادى ابنه الثاني وقال له: «بما أنه ليس لي ولد يُشرف على الأرض، فمن واجبك إذن أن تُعنَى بأمر الإيجارات والأموال الآتية من الأرض في كل موسم حصاد.»

سرَّ الابن الثاني كثيرًا بهذا التكليف؛ إذ يعني أنه سيعرف ما تغله الأرض. وحتى في يوم زفافه كان حريصًا في إنفاق النقود، فمنح الخدم والإماء أقل مبالغ يمكن أن يُمنحوها، حتى خجل أخوه الأكبر وأعطاهم نقودًا أخرى من عنده. وهكذا دب الشقاق بينهما، حتى في يوم الزفاف.

لم يَدعُ الابن الأكبر غير القليل جدًّا من أصدقائه إلى حفل زواج أخيه؛ لأنه كان يخجل من دناءته، ولأن العروس ليست سوى فتاة قروية.

يبدو أن لا أحد ممن يعيشون في ذلك البيت العظيم الآن، كان في راحة بال، ما عدا الحفيد الصغير الذي وُلِد لوانج لنج. وهذا هو مَن كان وحده يسبب راحة ضمير وانج لنج. فلم يشبع من النظر إليه والضحك معه، وإنهاضه عندما يقع.

لم يكن هناك هذا الحفيد وحده؛ لأن زوجة الابن الأكبر كانت تلد بانتظام، وكذلك زوجة الابن الثاني أيضًا كانت تلد في مواعيدها، فأنجبت بنتًا أول ما أنجبت، كما يليق بها احترامًا لزوجة شقيق زوجها. وعلى ذلك، في خلال خمس سنوات، كان لوانج لنج أربعة حفداء وثلاث حفيدات. وامتلأت الأبهاء بضحكهم وبكائهم.

ليست خمس سنوات بشيء يُذكر في حياة المرء، إلا إذا كان صغير السن جدًّا، أو بالغ الشيخوخة. وإن كانت تلك السنوات قد أعطت وانج لنج كل هؤلاء الحفداء، فقد أخذت منه الحالم العجوز عمه.

لم يعلم وانج لنج في أية ساعة مات عمه، سوى أنه كان راقدًا ميتًا عندما دخلت الخادم ذات مساء لتقدم له طبقًا من الحساء. فدفنه وانج لنج في يوم قارس البرودة، ووضع نعشه في مقبرة الأسرة في مكان منخفض عن قبر والده بقليل، ولكنه أعلى من المكان الذي أعده وانج لنج لنفسه.

صنع وانج لنج ملابس الحداد لجميع أفراد أسرته. وظلوا سنة كاملة يضعون شارة الحداد؛ إذ كان هذا من الواجبات المرعية في الأُسَر العظيمة عندما يموت أحد أقاربها.

بعد ذلك نقل وانج لنج زوجة عمه إلى منزله بالمدينة، وخصَّص لها حجرة في نهاية بهو بعيد، وعبدة تُعنى بها. واشترى لها نعشًا من الخشب. فظلت هذه العجوز تمص أفيونها في رضًا تام، ونعشها بجانبها حيث تستطيع رؤيته وتطمئن على نفسها.

الباب الحادي والثلاثون

كان وانج لنج يسمع طول حياته عن حرب هنا وهناك، ولكنه لم يَرَها. وعلى حين غرة اقتربت منه الحرب كما تظهر الزوبعة العنيفة في جو السماء.

سمع وانج لنج أول ما سمع من ابنه الثاني الذي قال لوالده: «لقد ارتفعت أسعار الحبوب فجأة؛ لأن الحرب تقترب منا يومًا بعد يوم. فيجب أن نحتفظ بما في مخازننا أطول مدة إذ سترتفع الأسعار وترتفع كلما اقتربت منا الجيوش.»

في أحد أيام أوائل الصيف، قدمت فرقة من الرجال آتية من الشمال الغربي. وذات صباح مشمس كان حفيد وانج لنج الصغير واقفًا أمام الباب، فلما أبصر صفوف الرجال الطويلة ذوي الحلل الرمادية، صاح: «انظر هؤلاء القادمين، أيها العجوز!»

خرج وانج لنج معه إلى الباب، فرأى رجالًا يملئون الشارع، ذوي وجوه غريبة متوحشة، فجذب الطفل إليه، وقال: «هيا بنا ندخل ونقفل الباب؛ فلا يجدر بنا أن نرى هؤلاء الرجال، يا قلبي الصغير.»

وفجأة، قبل أن يستدير وانج لنج، رآه شخص من بين أولئك الرجال، وصاح يناديه: «هيا ابن شقيق أبي العجوز!»

اتجه وانج لنج ببصره نحو ذلك النداء، فإذا به يرى ابن عمه، الذي ضحك بخشونة، وصاح يقول لزملائه: «يمكننا البقاء هنا، يا إخوتي؛ فهذا رجل غني ومن أقربائي!»

قبل أن يتحرك وانج لنج فزعًا، كان الرجال يتدفقون داخل أبوابه، مارين بجانبه، فجرى عائدًا بالطفل ليبحث عن ابنه الأكبر. فلما سمع هذا الابن ما أخبره به والده، تأوَّه وخرج.

ولكنه عندما أبصر ابن عمه، ورأى أن كل رجل يحمل سكينًا، قال: «مرحبًا بابن عمي. مرحبًا بعودتك ثانية إلى بيتك. سنُعِدُّ لكم طعامًا كي يأكل هؤلاء الرجال قبل أن يسيروا في طريقهم.»

فقال ابن عمه متبرمًا: «نعم، ولكن لا حاجة إلى السرعة؛ لأننا سنمكث هنا عدة أيام أو شهرًا أوسنة أو سنتين لأننا سنبقى بالمدينة حتى تستدعينا الحرب.»

تظاهر الابن الأكبر بأنه يجب أن يذهب ويُعِد ما يلزم. وأمسك بيد والده، واندفع كلاهما إلى البهو الداخلي، وأقفل الابن الأكبر الباب بالمزلاج.

جاء الابن الثاني، بعد ذلك يجري، وأخذ يطرق الباب ويلهث، قائلًا: «الجنود في كل منزل وفي كل مكان. يجب أن نعطيهم كل ما يريدون، ولنصلِّ طالبين انتقال الحرب إلى منطقة أخرى في أقرب وقت!»

فقال الابن الأكبر: «يجب أن نضع النساء سويًّا في أبعد بهو داخلي، ونحتفظ بالأبواب مقفلة بالمزاليج.»

وهكذا فعلوا. فشرع الابن الأكبر وأبوه يراقبان الباب ليلًا ونهارًا. وكان الابن الثاني يأتي كلما استطاع.

بَيْد أنه كان هناك ابن العم ذاك، وبسبب قرابته لم يستطع أحد إبعاده، فكان يروح ويجيء كيفما شاء، يحمل في يده سِكينَه لامعةً ومشهورة. وكان دائم النظر إلى هذه السيدة وتلك.

بعد أن شاهد ابن العم كل شيء، دخل ليرى أمه، فدخل معه وانج لنج ليريه مكانها. كانت راقدة على سريرها نائمة، حتى إن ابنها لم يستطع إيقاظها إلا بصعوبة. وأمعن الشاب النظر فيما حوله ليرى ما صارت إليه أمه. وعندما رقدت ثانية ونامت، خرج يتوكأ على قذافته كعصًا في يده.

لم يمقت وانج لنج وأسرته أحدًا من حشد الرجال الجالسين بدون عمل في الأبهاء الخارجية، كما كانوا يمقتون ابن عمهم هذا؛ إذ كان يدخل ويخرج حسبما أراد، ويُلقي نظراته على الإماء. فلاحظت ذلك كوكو، وقالت: «ليس أمامنا إلا أمر واحد؛ وهو أن نعطيه عبدة يتزوجها مدة بقائه هنا.»

فأخبر وانج لنج كوكو بأن تذهب إلى ابن عمه وتسأله عن أية واحدة يريد.

فعلت كوكو ما أمرها به، وعادت تقول إنه يريد الأمَة الصغيرة الزاهية اللون، التي تنام على سرير السيدة.

كان اسم هذه العبدة «نورة الكمثرى»، وهي التي اشتراها وانج لنج في سنة القحط. ولما كانت نحيفة، فقد دللوها وكلفوها بأقل أعمال عند لوتس.

عندما سمعت نورة الكمثرى هذا الأمر، بكت حتى خُيِّل إلى المرء أنها ستموت من كثرة البكاء. وجرت إلى وانج لنج، وجثت أمامه ووضعت رأسها عند قدميه، فقال للوتس: «لننظر ما إذا كان بمقدورنا أن نفعل شيئًا آخر، ونرسل أَمَة أخرى إلى ابن عمي.»

أخذت كوكو فتاة ممتلئة الجسم، قد بلغت العشرين من العمر، ليتزوجها ابن العم. ومع ذلك فما زالت الفتاة الصغيرة متعلقة بقدمَي وانج لنج. فرفعها برفق، فوقفت أمامه، فرأى وجهَها صغيرًا ناعمًا بيضيَّ الشكل رقيقًا وزاهي اللون، وفمَها دقيقًا أحمر. فرفعت عينيها ونظرت إليه نظرة كاملة، ثم مرَّت من أمامه وانصرفت.

الباب الثاني والثلاثون

ولدت العبدة التي تزوجت ابن عم وانج لنج طفلة، فأعطاها وانج لنج بعضًا من الفضة، وأمرها بأن تُعنَى بزوجة عمه بقية أيامها. وعندما ماتت زوجة العم، طلبت منه الفتاة أن يزوجها لأحد الفلاحين. فأرسل في طلب أحد رجاله، فحضر وتزوجها شاكرًا؛ لأنه كان فقيرًا جدًّا فلا يستطيع الزواج إلا من مثل هذه الفتاة.

خُيِّل إلى وانج لنج أنه سيحظى بالهدوء وراحة البال حقيقة؛ إذ كان على أبواب الخامسة والستين من عمره. ولكنه لم يجد الهدوء؛ إذ كانت كل من زوجتَي ولديه تكره الأخرى، وتشعبت الكراهية منهما إلى الرجلين أيضًا، فكان بهواهما مليئَين بالغضب.

زيادة على هذا، كان لدى وانج لنج متاعبه السرية مع لوتس منذ أن حجز عبدتها ولم يعطها ابن عمه. فكانت تغار من الفتاة، وتخرجها من الحجرة عندما يدخل وانج لنج؛ فقد رأى أن الفتاة جميلة حقًّا وزاهية اللون كزهرة الكمثرى تمامًا، وبدأ يفكر فيها كثيرًا.

كأنما لم يكن لدى وانج لنج ما يكفيه من المتاعب مع نساء بيته. فهذا ابنه الأصغر، الذي كان يعيش بين الجنود عندما كانوا هناك، يأتيه الآن، ويقول له: «عرفتُ ماذا أفعل؛ سأكون جنديًّا وأذهب إلى الحروب.»

فصاح فيه وانج لنج قائلًا: «ما هذا الجنون؟! أمَا قُدِّر لي أن أحظى بهدوء البال مع أولادي؟»

فقال الغلام فجأة وقد استقرت عيناه تحت حاجبيه: «ستنشب حرب لم نسمع بمثلها قط .. ستحدث ثورة وقتال لم يحدثا من قبل، وستتحرر أرضنا!»

فقال وانج لنج مستغربًا: «لا أعرف معنى كل هذا الكلام؛ فإن أرضنا متحررة فعلًا، أؤجرها لمَن أشاء، وأنت تأكل منها وتكتسي. ولا أدري أية حرية تريدها زيادة على هذا.»

فتمتم الولد بحسرة، قائلًا: «إنك عجوز جدًّا .. ولا تفهم شيئًا.»

فكر وانج لنج، ثم قال في تؤدة: «حسنًا، وسنزوجك قريبًا يا بنيَّ.»

فأجاب الغلام: «لستُ بالشاب العادي. إن لي آمالًا وأحلامًا. إنني أصبو إلى المجد. وفضلًا عن هذا، فربما لا يكون في الأبهاء فتاة جميلة غير الفتاة الصغيرة خادمة السيدة التي في الأبهاء الداخلية.»

عرف وانج لنج أنه يتحدث عن نورة الكمثرى، فامتلأت نفسه غيرةً غريبة. ولما انصرف ابنه، تمتم يقول في نفسه: «لا راحة بال في أي مكان بمنزلي!»

الباب الثالث والثلاثون

لم يكفِ وانج لنج عن التفكير فيما قاله ابنه الأصغر عن نورة الكمثرى، حتى ملأ التفكير ذهنه. لم يقل لأحد شيئًا، بل جلس وحده في بهوه.

وهكذا مرَّ اليوم طويلًا موحشًا بالنسبة لوانج لنج.

عندما أقبل الليل، كان لا يزال وحده هناك، ولم يوجد أحد قط في البيت كله يمكنه أن يذهب إليه ويتخذه صديقًا. وبينما هو جالس في الظلام تحت شجرة خيار القاسيا العطرة الأريج، مرَّ شخص بجانب الموضع الذي كان جالسًا فيه ونظر إليه نظرة خاطفة. كان ذلك الشخص هو نورة الكمثرى.

فناداها وانج لنج قائلًا: «أي نورة الكمثرى! تعالَي عندي هنا.»

ما إن سمعته الفتاة حتى ذهبت إليه، وجلست على الأرض وأمسكت بقدميه، فقال: «إنني رجل عجوز .. عجوز جدًّا ...»

قالت: «أحبك .. إنك عظيم الحنان.»

امتلأ قلب وانج لنج بالحب العميق نحو تلك الفتاة.

لم يعرف أحد بسرعة ماذا فعل وانج لنج بعد أن تزوج نورة الكمثرى؛ لأنه لم يتحدث عنه مع أي فرد على الإطلاق. ولماذا يتكلم عنه، وهو سيد البيت؟

كانت كوكو هي أول مَن عرف ذلك الأمر، فقالت: «لا بد أن أخبر السيدة.» ولما كان وانج لنج يخشى غضب لوتس، فقد وعد بأن يعطي كوكو حفنة من الفضة، ويعطي لوتس أي شيء تريده.

بقي بعد ذلك الأبناء الثلاثة .. جاءوا إليه واحدًا بعد آخر. فقَدِمَ إليه الابن الثاني أولًا. فلما جاء، بدأ يتكلم عن الأرض وعن المحصول. وكان يتطلع حواليه من كل جهة من

الحجرات وهو يتكلم، ليتحقق من صحة ما سمعه. فصاح وانج لنج، يقول: «أحضري لي شايًا، يا طفلتي، وشايًا لابني!»

خرجت نورة الكمثرى، ونظر إليها الابن الثاني، ولكنه لم يقل شيئًا وهما يتحدثان في هذا الموضوع وذاك. لقد علم الابن الثاني كل ما كان يريد أن يعرفه، فانصرف.

بعد ذلك جاء الابن الأكبر، قبل أن ينتصف نهار ذلك اليوم. وكان وانج لنج يخاف كبرياءه، فلم ينادِ نورة الكمثرى في بادئ الأمر. ثم رأى ابنه الأكبر على حقيقته؛ رجلًا كبير الجسم، ولكنه مع ذلك يخاف زوجته، ابنة المدينة، ويخاف عدم نبل محتده أكثر منها ومن أي شيء آخر. وبعد ذلك لم يعد وانج لنج يكترث لابنه الأكبر، فنادى نورة الكمثرى ثانية، وقال: «تعالي، يا طفلتي، وصبي الشاي ثانية لابني الآخر!»

عندئذٍ جلس الرجلان صامتين وهي تصب الشاي، وأخيرًا قال الابن: «لم أصدق أن المسألة هكذا.»

فقال وانج لنج: «ولمَ لا؟ هذا منزلي، وهذه جاريتي.»

لم ينطق الابن الأكبر بعد ذلك بحرف واحد، وخرج. ولما صار الوقت ليلًا، جلس وانج لنج في الحجرة الوسطى المطلة على البهو، في ضوء الشموع الحمراء الموقدة فوق المنضدة. جلس يدخن بينما جلست نورة الكمثرى إلى جانب المنضدة الآخر، وقد أطبقت يديها ساكنتَين في حجرها. وكانت تنظر إلى وانج لنج بين الفينة والفينة، وهو يحدجها بنظراته فخورًا بما عمل.

وبغتة رأى ابنه الأصغر واقفًا أمامه، ولم يلاحظه أحد وهو يدخل ... تألقت عينَا الصبي، وثبتهما على والده. وأخيرًا قال بصوت منخفض: «سأذهب الآن لأكون جنديًّا .. سأذهب وأصير جنديًّا.»

دبَّ الرعب فجأة في قلب وانج لنج من ابنه هذا، الذي قلَّما كان يلاحظه منذ أن وُلِد وأثناء نموه.

فأعاد الابن قوله ثانية وثالثة: «أنا ذاهب الآن .. أنا ذاهب الآن ..»

استدار الابن فجأة ونظر إلى الفتاة مرة، ونظرت هي إليه، ثم غطَّت وجهها بيديها لكيلا تراه. بعد ذلك أدار الشاب نظره عنها، وخرج من الحجرة. فشمل السكون جميع الأرجاء.

التفت وانج لنج إلى الفتاة أخيرًا، وقال في رقة وحسرة: «إنني عجوز جدًّا بالنسبة لك يا قلبي، وأعلم هذا تمامًا. إنني رجل عجوز، رجل عجوز.»

بَيْد أن الفتاة خفضت يديها وأنزلتهما عن وجهها، وصاحت تقول: «إنني أحبك أكثر من أي رجل آخر!»

عندما أصبح الصباح، كان ابن وانج لنج الأصغر قد خرج إلى حيث لا يعلم أحد.

الباب الرابع والثلاثون

كبر وانج لنج وشاخ، ولكنه كان كلفًا بنورة الكمثرى، وكان وجودها في بهوه عاملًا على اطمئنانه وراحة باله. وكانت تعطف على بلهائه المسكينة إكرامًا لخاطره، فكان هذا العطف عاملًا آخر على اطمئنانه، وعهد إلى نورة الكمثرى بالعناية بالبلهاء بعد وفاته.

أخذ وانج لنج ينطوي على نفسه، ويخلد إلى الاعتكاف وحده، إلا من بلهائه المسكينة ونورة الكمثرى. كان ينظر إلى نورة الكمثرى أحيانًا ويشق عليه أمرها، فيقول: «إنها لحياة هادئة بالنسبة لك، يا طفلتي.»

ولكنها كانت تجيبه دائمًا في رقة واعتراف بالغ بالجميل، فتقول: «إنها لحياة هادئة وآمنة، وإنك لرحيم بي.»

فلا يقول وانج لنج بعد ذلك شيئًا؛ لأنه كان وقتئذٍ يهوى راحة البال أكثر من أي شيء آخر، ولا يتمنى إلا أن يجلس في بهوه بقرب هاتين الاثنتين.

هكذا كان يجلس وانج لنج، وتتقدمت به سنُّه يومًا بعد يوم، وسنة بعد أخرى. وكان يقول في نفسه إن حياته قد انتهت وهو قانع بها.

كان يذهب في بعض الأحايين إلى الأبهاء الأخرى، وأحيانًا يرى لوتس التي كانت تُرحِّب به غاية الترحيب؛ إذ صارت عجوزًا هي أيضًا، وقانعة بالطعام والنبيذ اللذَين تحبهما، وبالفضة التي تنالها عندما تطلبها. بعد تلك السنين، كانت تجلس مع كوكو كصديقتَين، تتحدثان وتأكلان وتشربان وتنامان، وتصحوان من النوم لتتحدثَا ثانية قبل تناول الطعام والشراب.

عندما كان وانج لنج يذهب إلى بهوَي ولديه، كانَا يُهرعان ليُقدِّما له الشاي، فيسألهما عدة مرات؛ لأنه كان ينسى بسرعة: «كم حفيدًا وحفيدة عندي الآن؟»

وكان يتلقى الجواب على الفور: «أحد عشر حفيدًا وثماني حفيدات، لولديك معًا.»

بعد ذلك يجلس فترة قصيرة وينظر إلى الأولاد المجتمعين حوله، ويسألهم: «هل تذهبون إلى المدرسة، وهل تدرسون الكتب الأربعة؟»

فيضحك الأولاد من هذا الرجل العجوز، ويقولون: «كلا يا جدي، لا أحد يدرس الكتب الأربعة منذ عهد الثورة.»

بعد ذلك لم يَعُد يذهب ليرى ولديه، ولكنه كان يسأل كوكو أحيانًا: «هل زوجتا ابنيَّ على وفاق بعد كل هذه السنين؟»

فتبصق كوكو على الأرض، وتقول: «هاتان! إنهما كقطتين تواجه كل منهما الأخرى.»

ومرة أخرى قال لكوكو: «أمَا سمع أحد عن ابني الأصغر، وإلى أين ذهب؟»

فكانت ترد عليه؛ إذ لا يخفى عليها شيء في هذه الأبهاء، فتقول: «يقال إنه موظف حربي وذو مركز عظيم فيما يطلقون عليه في الجنوب، اسم الثورة.»

كان وانج لنج يصحب أحيانًا خادمًا، ويأخذ سريره إلى أرضه، وينام ثانية في بيته القديم المصنوع من الطين. وذات يوم في أواخر الربيع، سار في حقوله مسافة قصيرة، وذهب إلى الرابية التي دَفن فيها موتاه. ونظر إلى القبور، وتذكَّر كلَّ فرد منهم. كان يتذكرهم بوضوح أكثر من أي فرد آخر، حاشا بلهاءه المسكينة ونورة الكمثرى، ثم فكَّر فجأة: «حسنًا، وسأكون أنا بعدهم.»

نظر وانج لنج إلى قطعة الأرض التي سيرقد فيها، وتصور نفسه فيها، وفي أرضه أخيرًا، وإلى الأبد، وتمتم يقول: «لا بد أن أرى نعشي.»

اشترى ابنه نعشًا مصنوعًا من الخشب المستعمل في دفن الموتى؛ لأن هذا الخشب متين متانة الحديد، فاطمأن وارتاح ضميره.

بعد ذلك عقد نيته على الذهاب إلى المنزل القائم في أرضه، هو ونورة الكمثرى والبلهاء، وما يلزمهم من خدم. وأمرهم بنقل نعشه إلى هناك. وهكذا اتخذ مسكنه ثانية في أرضه.

كان وانج لنج يجلس في شمس الخريف الحارة، في الموضع الذي كان يجلس فيه والده، ويسند ظهره إلى الحائط. ولم يعُد يفكر الآن في شيء سوى طعامه وشرابه وأرضه.

كان يشكو أحيانًا من ابنَيه إذا لم يحضرَا إليه كل يوم، فكانت نورة الكمثرى تقول: «لديهما كثير من المشاغل؛ فقد عُيِّن ابنك الأكبر ضابطًا على أغنياء المدينة، وتزوج بسيدة أخرى. وافتتح ابنك الثاني سوقًا عظيمة للغلال خاصة به.» كان وانج لنج يصغي إليها، ولكنه كان ينسى كل شيء بمجرد أن ينظر إلى أرضه.

رأى وانج لنج نِيَّة ولديه في وضوح تام؛ فذات يوم حضرا إليه سويًّا، وسارَا حول المنزل، ثم إلى الأرض، وتبعهما وانج لنج في صمت، وسمع ابنه الثاني يقول: «سنبيع هذا الحقل، وهذا، وسنقسم الأموال بيننا بالتساوي ...»

ما إن سمع الرجل العجوز العبارة: «سنبيع الأرض» حتى صاح قائلًا: «الأبناء الأشرار العاطلون، يبيعون الأرض؟»

فهدآه قائلين: «كلا .. كلا .. لن نبيع الأرض إطلاقًا ...»

قال: «إنها نهاية الأسرة .. عندما تبيع الأرض. مِن الأرض جئنا، وإليها نعود.» ثم انحنى وأخذ حفنة من تراب التربة، وأمسكها في يده، وتمتم يقول: «لو بعتم الأرض لكانت النهاية.»

أمسك الولدان أباهما، كل واحد من جانب، وكان يشدد قبضته على تراب الأرض الدافئ المفكك. فطمأناه، وأخذا يكرران قولهما. يقول الابن الأكبر، ثم يعيد قوله الابن الثاني: «استرح في طمأنينة يا أبانا، استرح في طمأنينة. لن تُبَاع الأرض.»

ولكنهما كانا ينظران، أحدهما إلى الآخر، من وراء ظهره، ويبتسمان.


هنداوي